

محاوَرَات رِيْنَانِ الفِلْسَفِيَّةِ

لِلكَاتِبِ الْفَلِيسُوفِ وَالْمُؤَرِّخِ اللُّغَوِيِّ
أَرْنِسْتِ رِيْنَانِ

نَقَلَهَا إِلَى الْعَرَبِيَّةِ
عَلِي أَدَهْمُ

الكتاب : محاورات رينان الفلسفية

الكاتب : أرنت رينان

نقلها إلى العربية : علي ادهم

الطبعة : 2013

الناشر: وكالة الصحافة العربية

5 ش عبد المنعم سالم - الوحدة العربية - مذكور - الهرم - الجيزة
جمهورية مصر العربية



هاتف: 35825293 - 35867576 - 35867575 فاكس: 35878373

http://www.apatop.com E-mail:news@apatop.com

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة، لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أى جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

دار الكتب المصرية

فهرسة إثناء النشر

أدهم، علي.. محاورات رينان الفلسفية

علي أدهم - الجيزة : وكالة الصحافة العربية، ٢٠١٣ .

تدمك : 9- 167-446-977-978

.. ص ، .. سم .

١- محاورات رينان الفلسفية

رقم الإيداع / ٢٠١٣/١٠٢٨٤

٧٤٠،٧

أ. العنوان

محاورات رينان الفلسفية

تصدير

لأرنست رينان مكانة ملحوظة الجلال في تلك المنظومة الفريدة من مبرزي الكتاب ، وأعلام الفلاسفة ، وأعيان المؤرخين ونوابغ المستشرقين ، التي أزدان بها الأدب الفرنسي في القرن التاسع عشر ، وبعد صيته وعظم تأثيره واتسع ثراؤه. ورينان من أحق رجالات الأدب الفرنسي بالعناية وأجدرهم بالدرس لأنه نسيج وحده في تعدد مناحي الفكر ، وتنوع المواهب ، فهو فليسوف يعالج الموضوعات الكبرى ، وكاتب خلاب الأسلوب ، وناقد نافذ البصيرة ، ومؤرخ موقف الروينة ، وقد جمع بين عمق الإحساس الشعري واستفاضة المعرفة ، وبين سعة العقل وحرية الفكر وسراوة الأخلاق والقداسة .

وكان لكل فكرة من الأفكار في عقله مدار ، ولكل عاطفة بشرية في قلبه صدى وإن كان يدمن تصفح الأفكار دون أن يستأسر لها ويملك العواطف دون أن تتملكه ، وقد ترك طابع هذه الصفات العقلية العالية ، والمناقب الخلقية الحميدة ، على آثار فنية رائعة حظها من التجويد وفير ، ونصيبها من الخلود كبير ، وهي علالة المفكر في أحوال المجتمع وغاية الوجود ، وسمر المسافر في غيابات التاريخ ، ومؤنس الحائر في موحشات المباحث اللغوية.

وليس الإعجاب برينان وتقدير عبقريته موقوفاً على قومه وحدهم فقد ملأت شهرته الأقطار وملأت العقول والأسماع ، ورفعته الإنسانية إلى مرتبة أساتذة الحكمة الخالدين ، الذين تحرص على آثارهم وتصون أسمهم عن الأغفال والنسيان ، وتلتمس عندهم الهبات الروحية والعزاء النفسي. على أن رينان كسائر كبار الكتاب ، قوته متوقفة على قوة عصره ، وكما أنه لا معنى للكلمة في غير موضعها ، ولا قيمة للنغمة في غير لحنها ، كذلك الكتاب العظماء لا يمكن أن نفسر عربيتهم ونستوضح معناهم بغير الرجوع إلى العصر الذي اشتمل عليهم، ولئن كنا نحصرُ النظر في حياتهم

ونقصر البحث على أفكارهم ومراميمهم ، فما ذاك إلا لأن التراعات الفكرية الغالبة على عصر من العصور لا تكاد تبدو بين غبار الأهواء العمياء والخوافر المظلمة. وإنما تظهر جليلة ناطقة في نفوس كبار الكتاب. والكاتب الكبير يتشرب عصره ويستوعب كل محصولاته الفكرية ويجمع تفاريق نزعاته ، ومن أكبر مميزاته أنه يحسن تمثيل عصره ويدل عليه أوضح دلالة. ومن الدروس النافعة التي يتعلمها الإنسان من الفكر الحديث أن كل مفكري عصر من العصور مهما تبادت بهم أسباب التفرقة يعبرون عن جوانب مختلفة لفكرة واحدة ، وأشد ما يتجلى ذلك في المذاهب الفلسفية. وليس التفوق في الكتابة ، وتبوؤ الصدارة في ديوان الأدب متوقفاً على الابتكار بالمعنى الذي ألف ترديده بعض الكتاب الذين يحاولون أن يدخلوا على الناس أن الكاتب المبتكر مثل العنكبوت ينسج خيوطه من أمعائه. وإنما الكاتب مثل النحل يجمع الشهد الذي يجمعه من مختلف الأزهار وشتى الحقول.

تلقاء ذلك رأيت أن أنسب طريقة أمهد بها السبيل إلى فهم رينان بعض الشيء هي أن أكتب مقدمة موجزة أشير فيها إلى موقفه من الحركة الفكرية التي قامت في القرن التاسع عشر وأكشف عن تأثيرها فيه. وهو بحث عويص مشعب الأطراف كنت أؤثر السلامة على التورط في غمراته. ولكني أعلم العلم كله أن المترجم في هذا البلد من واجبه أن يكون شارحاً إلى حد ما ، ومن استيفاءات عمله أن يضع القارئ على النهج وينير له الطريق ، وفي غير بلادنا يتولى الاضطلاع بهذه المهمة الناقد الصحفي ، ولكن الصحافة عندنا لا تزال قليلة العناية بنقد الآثار الأدبية ، لذلك كتبت هذه المقدمة على سبيل الإضاءة ليس غير.

وقد ترجمت هذا الكتاب لأني قرأته فأعجبت به. وراقني منه تسهيله لمستوعرات الفلسفة. وإشاعته النور في النواحي التي يخيم عليها الظلام السرمدى ، فضلاً عما فيه من مادة صالحة للتفكير الفلسفي وغذاء للعقول المتطلعة ، وسيشرف القارئ منه على عقل من أوسع العقول وأرقاها ثقافة ، يواجه في صراحة مستحبة أقدم المسائل ويتناول المشكلات المستعصية ، ويروي لنا بأمانة نادرة آراءه وأحلامه ويقينياته

وشكوكه وهواجس نفسه وطمحاته خياله. وأعلم أن من الشباب المتعلم لفيما يقسمون البحوث الفكرية إلى قسمين: قسم الضروريات وقسم الكماليات. وهم يلحقون مثل هذا الكتاب بالقسم الأخير. وليس من همي استزاهم عن هذا التقسيم وتمجّن هذا المذهب. وأني أعرف قصوري إزاء منطقهم القويم منطق الفائدة والمصلحة وتقدير الأمور بالدرهم والدينار ووزنها بالقيراط والمكيال. غير أنني أقول أن ما يراه فريق من الناس من قبيل الكماليات قد يراه غيرهم من صميم الضروريات والعكس بالعكس ، ومن الناس من يرون أن الفكرة غير المنظورة أصدق وجوداً من المادة الملموسة.

وقد تحريت جهدي الأمانة في النقل ، لأني لم أستطع أن أسيع فكرة التصرف في الترجمة. بيد أن الناقد المتشدد الولوع بتصعيد الهفوات والوقوع على المعاييب من تحريف وتشويه أو سهو وسوء فهم قد يصيب في هذه الترجمة شيئاً من بغيته. لأنه ليس في وسع مترجم مهما أوتي من البسطة والتمكين أن يدعي العصمة. على أنني لا أحسب مثل هذا الناقد أهلاً لأن تزف إليه التهاني وتدق له البشائر. وقد يثبت بنقده أنه فارس ميدان ومجلي الحلبة ولكن طريقته لا تدل على أنه يملك هبة النقد السامية والنظرة الفنية الشاملة التي ترفع الناقد إلى مستوى الخالقين العظماء. وأرى أن مقياس الإجادة في الترجمة ، هو القدرة على التشيع بروح المؤلف ، والناقد الفني هو الذي ينظر إلى الترجمة من حيث هي قطعة فنية تلائم روح المؤلف أو تناكرها وتعرب عنها أو تطمس معالمها. ويسرني أن تقاس هذه الترجمة بهذا المقياس سواء أسقطت به أم قامت ، وشال بها الميزان أم رجح. فإذا كنت قد وفقت في سبيل ذلك بعض التوفيق فسيكون في ذلك عزاء لي على ما احتملت من عناء وما أنفقت من جهد. وإذا كان الفشل نصيبي فما يسرني أن يعيد غيري الكرة ويتم ما حاولت أن أبداه.

مقدمة العرب

خصائص العصور التاريخية - نضوج الحاسة التاريخية في القرن التاسع عشر - تأثر ثقافة القرن التاسع عشر بالثورة الفرنسية ونهضة الفكر الألماني - أثر الروح الرومانتك - الفكرة الرئيسية في الفلسفة الألمانية - الحركة الفلسفية من كانت إلى هجل - ظهور كارليل ورينان وتأثرهما بالفكر الألماني - وجوه الشبه والخلاف بين كارليل ورينان - أثر الروح العلمية في رينان - فلسفة رينان وتأثرها بفلسفة هجل - ريان ونزعة الدلتاتيزم - حياة رينان وأخلاقه - رأيه في الساميين.

تاريخ الإنسانية كل حي مترابط الأجزاء متصل الحلقات بحيث لا نستطيع أن نفهم مظهرًا من مظاهره حق الفهم إذا نظرنا إليه منفردًا مبتوت الصلة بسائر المظاهر. فليس يكفي إذا حاولنا أن نفقه تاريخ العرب ، ونفق على سر تاريخ الرومان ونصل إلى صميم تاريخ اليونان ، أن نلم بتاريخ كل أمة من هذه الأمم على حدة كأنها قامت في غفلة من الدهر وبمعزل عن الأمم ، ولا معدى لنا إذا أردنا أن نجيد البحث ونسدد النظر عن مراقبة اتصال الحوادث العالمية وتسلسل الحركات التاريخية ، والوقوف على مدى تأثير كل حضارة في الحضارات التي تليها ومعرفة ما استمدته الحضارة من سواف الحضارات وغابر الأمم وما ابتكرته من تفكيرها الخاص ، ولو أننا قصرنا النظر على تاريخ أمة بعينها لضل منا الرأي واعتور الشطط أحكامنا وكانت مظنة المبالغة وهدف التعصب ، وغم علينا تفسير الكثير من أحوال المجتمع وملابساته وقوانينه وشرائعه وسائر مقومات حضارته ومشخصات كيانه.

وعندما نرسل النظر في التاريخ مجتمعا متلاحم الأجزاء نلمح وحدته الحية ونرى الحضارة العامة تغذ السير متنقلة بين مختلف الأمم كالنظر المديد تمده الروافد والأخوار حتى تصب في محيط الأبد العظيم الذي ينتهي عنده كل جهد. وندرك أن الحضارة شيء متحرك غير مستقر بحيث لا يمكن أن لحها إلا في نموها المتزايد

وتطورها المستمر ، ولولا ذلك لاستسرت علينا مظاهر الأشياء وغابت عنا أصولها الواشحة في القدم. وهذه النظرة العامة للتاريخ خليقة بأن تردنا إلى الحق وتوحي إلينا الاعتدال في الحكم إذ تبصرنا في مجرى الحوادث العام مكان الحضارة التي قد تحتاج بنفوسنا الرغبة في إشارها وتفخيم أمرها والتعصب لجانبها.

وإذا ألفنا هذه النظرة واستضأنا بها في بحوثنا التاريخية استبان لنا مميزات كل حضارة وخصائص كل دور من أدوارها وتجلت لنا الفروق بين الحضارات على أتم ما يكون في آثارها الأدبية ومظاهر حياتها الروحية. فإن لكل حضارة لوناً خاصاً من ألوان الأدب والفن تتخذه للتعبير عن ذاتها وتصوير حياتها فتتمثل فيه نوازع النفوس ووجهات التفكير ، وتصلح ظروفها الخاصة وقوقها المكونة على تأكيد هذا اللون حتى يصبح شارها المعروفة وميسمها الواضح ، ولكن دور من أدوارها صفته المنفردة وعقليته الممتازة ونصيبه الخاص.

من أمثلة ذلك القرن التاسع عشر. فإن لونه الخاصة وصفته التي تفرد بها هي التزعة التاريخية. ولقد كان هذا القرن هو العصر الذهبي لدراسة التاريخ. ولقد بز في ذلك سائر العصور وأزرى بكل جهودها في هذه السبيل. ولم يجتمع عصر واحد من عصور الدنيا ما جمعه هذا القرن من عظماء المؤرخين. ولقد كان كبار كتاب هذا القرن يبدأون بالتاريخ وينتهون به ويثون فلسفتهم الاجتماعية على الاستنباط التاريخي ويدعمون آراءهم بالشواهد التاريخية والأسانيد الأثرية. وتعددت طرائق تفسير التاريخ ، فمن مفسر له من الوجهة الروحية إلى مفسر له من الناحية المادية. ومن مؤرخ شعبي التزعة إلى آخر أرسطوقراطي المرمى. ومن مصور لحوادث التاريخ بارع ، إلى محلل لعناصره قدير. وكان فحول الشعراء يستعيرون من صورته ويحيون شخصياته. وكان المصلحون يحثون على دراسته للوعظ والعبرة وقادة السياسة يديرون فيه النظر للحكمة والدراية. ووجه إليه الروائيون شيئاً غير قليل من مجهودهم وأفسح له الفلاسفة مكاناً ممتازاً في فلسفتهم.

وتظهر ميزة هذه التزعة التاريخية في أهرم مجاليها عندما نقابل حالة الحياة عند اليونان بحالة القرن التاسع عشر. فقد كانت الحياة اليونانية قائمة على تجاهل هذه التزعة وإهمال شأنها. وبينما كان الإنسان في القرن التاسع عشر، يرى أن حياته حلقة من سلسلة حياة طويلة سائرة من آلاف السنين. كان اليوناني يرى نفسه كلفة تامة ووحدة مستقلة. وكان اليونانيون يصفون على الماضي ظلال الأساطير ويحيطونه بآثار من الخلود فلم يكن عجباً عندهم أن ينتسب الإسكندر إلى دايونيزاس ، ولا إن يلحق قيصر نسبته بفينوس ، فتجوز منطقة الأسطورة على عالم التاريخ ويغيب الحق التاريخي في جو الرموز والأسرار. وكان الحاضر هو مناهج براعة مؤرخي اليونان وكانوا يجيدون فهمه وتصويره وكانت تنقصهم قوة مشاهدة الماضي وإحياء صوره ، على حين أن أعظم الطرف التاريخية التي خلفها مؤرخو القرن التاسع عشر هي أشدها إمعاناً في القدم وتغلغلاً في الماضي. ولقد كتب العبرانيون تاريخهم ومألوه بجليل الحوادث ورددوا فكرة العناية الإلهية المسيطرة على الدنيا المتصرفه في مصائر الدول ، تلك الفكرة التي تركت أعمق أثر في الكثيرين من مؤرخي أوروبا. ونبع من العرب مؤرخون كبار وأظهروا كفاية نادرة في جمع الحوادث واستثبات النصوص ، ودل أحدهم على عبقرية فائقة في نظراته إلى الشؤون الاجتماعية. ولكن المؤرخين المتقدمين في جملتهم على براعتهم وفضلهم كانوا يندون عن الصواب ويخالفون شرعة الإنصاف عندما يحاولون أن يصفوا عصرًا غير عصرهم ، وأمة غير أمتهم. فمؤرخوا اليونان كانت تتم كتاباتهم على احتقار غريب للغير وسوء فهم لأحواله ولم يبرأ بعض مؤرخيهم من وصمة تلفيق الأكاذيب وتنميق الأساطير إكباراً لشأن أمتهم واستصغار لأمر غيرها. وكانوا لا يعيشون إلا في حاضريهم بل لم يفهموا من حاضريهم إلا ما كان تحت أعينهم وفي متناول حواسهم. وكانوا إذا حكموا على الماضي قاسوه على الحاضر. وإذا نظروا إلى أمة غير أمتهم نظروا إليها في ضوء معتقداتهم الخاصة وعابروها بمعاييرهم الأدبية وهكذا لم يملك اليونانيون ، على سمو ملكاتهم الفنية ، التصور الانتقادي للتاريخ ، وكان العبرانيون يعتقدون أنهم شعب

الله المختار ، ولم يكتب العرب عن غيرهم من الأمم ما يدل على تحري الحقيقة وتوخي الإنصاف ولهم في ذلك ضروب من التخليط تصلح للفكاهة في ساعات الفراغ.

بل مالنا نبعد الخطو ونرجع إلى التاريخ القديم وأمامنا القرن الثامن عشر. فقد كان ينقص مؤرخيه العظماء الخيال العاطف الذي يمكن المؤرخ من النفوذ إلى أرواح العصور السالفة ومشاركة أهلها في احساساتهم: وكان مؤرخوه يأخذون فكرة أن الإنسان في كل زمان ومكان هو الإنسان بعينه قضية مسلمة لا يأتيها الباطل.

أما القرن التاسع عشر فقد برئ من أكثر هذه العيوب ونضجت فيه الملكة التاريخية أتم نضوج وامتناز من بين سائر القرون بلطافة المدخل إلى باحات النفوس وهي السرائر واستيطان دخائل الروح واستيحاء طيوف الماضي وإحياء شخصياته الكبيرة. وقد تآزر عاملان بينهما شابكة قربي على إسباغ هذه الروح على القرن التاسع عشر. العامل الأول هو الثورة الفرنسية ، والعامل الثاني هو نهضة الفكر الألماني.

غيرت الثورة الفرنسية الأفكار وقلبت النظم وطوت الخلف بين الأمم وقربت ما بين قلوبها المتباعدة ونفوسها المتناكرة. فاتصلت الأفكار وامتزجت الثقافات وانداحت دوائر البحث وأقبل الناس تحذوهم العاطفة المشبوبة والهمة الناشطة يبحثون من جديد في العلم والدين والأدب والتاريخ والفلسفة وغيرها من المعارف البشرية ، وكما استطاعت الثورة في الميدان السياسي أن تخلع نير العبودية وتقدم السلطات الغاشمة وتسترد الحرية المغصوبة والحق المهضوم ، فكذلك في الميدان الفكري مهدت السبيل إلى التخلص من ربة التقاليد وأهدرت حرمة تلك القداسة الوهمية المضروبة حول بعض المباحث الفلسفية وأزاحت عن الصدور كابوس التعصب.

وكانت يقظة الاهتمام التاريخي ثمرة من ثمرات الاهتمام الروماني بالحياة ، لأن الروح الرومانتية التي استحوذت على النفوس في طليعة ذلك القرن كانت مولعة بالغرائب موكلة بالأسرار ، فلا غر وإن رأيت في كل عصر من عصور التاريخ ما يثير طلعها ويطلق خيالها. فالعصور الوسطى تستهويها لما حفلت به من غرائب مدهشة

وأقاصيص عجيبة ولما فيها من كرامات القديسين ومعجزاتهم الخارقة والقلاع المهجورة والقصور المسحورة والفرسان والأبطال الصليبيين والدولة الرومانية المقدسة وبطلها شارلمان حامي حمى النصرانية الذي نسجت حوله طائفة من الخرافات لم ترجمها معاول النقد الحديث ، والشرق يخلب لبها لأنه مشرق الحضارة ومهبط الأديان الكبرى ومسرح الأنبياء.

لذلك اتسع نطاق الأبحاث التاريخية وكثر إيفاد البعث للتنقيب عن الآثار والإلمام بأحوال الأمم الغابرة والحاضرة ، وترجمت كتب ديانات الهند إلى اللغات الأوروبية وجعل الشعراء يقلدون الحلولية الهندية والصوفية الفارسية ، وعظم شأن الماضي في نفوس الباحثين وأيقنوا أن الحاضر الراهن هو صفحة واحدة من صفحات كتاب الإنسانية الضخم لا يعبر عنها التعبير الوافي ولا يعطي عنها فكرة صحيحة ، وعرفوا أنه لا يوجد شيء غير جدير بعنايتهم ما دام يصف عاطفة إنسانية أو يثبت حادثة تاريخية فجمعت الملاحم وحفظت أغاني القرويين وأساطير الشعوب وقصص الجان والمردة وشرع علماء اللغات يدرسونها في نور التحقيق التاريخي ، وتغير نظر المفكرين للتاريخ فصاروا لا ينظرون فيه على أنه مجموعة من الأمثال صالحة لتحضير الخطب واستخراج المواعظ والعبر وجمع الشواهد للقدوة الحسنة أو للمباهاة بمجد الأجداد وغرر المفاخر ، بل من حيث هو تطور عميق شامل.

وكان هناك شعب حامل طالما رماه جيرانه الأذكىء بكثافة الشعور وجمود الظل. وهو الشعب الألماني. وكأنما دقت الساعة إذ ذاك وآن الأوان ليتولى هذا الشعب الزعامة الروحية لتلك الحركة الفكرية الباهرة وقد أحدثت الثورة في فرنسا انقلاباً سياسياً اجتماعياً وأحدثت في إنجلترا انقلاباً في الأدب والشعر. أما في ألمانيا فإنها أحدثت نزعة فلسفية ، وذلك لأنه من مميزات الثورة الفرنسية أنها وجهت العقل الإنساني إلى ناحية التجريد ولم يكن هناك شعب أكثر قابلية لمجاعة هذه النزعة الفكرية من الألمان ، فإن لغتهم معروفة بأنها لغة تجريدية. وبفضل هذا الاستعداد وصلوا إلى الأفكار الكبيرة وشيدوا الأبنية الفلسفية العجيبة. وكانوا يشعرون أن وراء بلاغات العصر

المدرسي وزخارفه وتحاسينه ، غوراً أعمق. وأن خلف المذاهب المتباينة والاعتقادات الدينية المتعددة ، العاطفة الدينية. وأن خلف القواعد والتفاعيل والأوزان ، الجمال الشعري. وأن وراء ظواهر هذا الوجود ، سره الباطن الخفي.

ولقد كانت الحركة الفكرية في القرن الثامن عشر من عمل فرنسا وانجلترا. فقد رأت فرنسا الحركة الفكرية في عهد لويز الرابع عشر. وخلفت فيها إيطاليا. ثم نازعت انجلترا فرنسا تلك السيادة الفكرية بظهور نيوتن. ولم يقطع التصادم الحربي بينهما تيار الاتصال الفكري. وقد عد (بوكل) المؤرخ امتزاج العقل الفرنسي بالعقل الإنجليزي أهم حوادث القرن الثامن عشر.

أما ألمانيا التي أخذت تبرأ من حرب الثلاثين سنة فكانت في سنة ١٧٠٠ في المؤخرة وظلت كذلك حتى سنة ١٧٦٠ فكانت تلعب دوراً ثانوياً وتتغذى على موائد فرنسا وانجلترا الحافلة ، حتى ظهر (لسنج) شيخ نقاد الألمان ورأس أدبائهم ومن حيث ظهوره أخذ الأدب الألماني ينهض من كبوته ويتبوأ مكانه وشرع مفكرو الألمان يكملون ما بدأه (روسو) في فرنسا وهيوم وبرك في انجلترا وتعلموا من روسو فكرة الحرية وتقديرها وأخذوا عن هيوم فكرة تحديد المعرفة البشرية واستمدوا من غيبن ومنسكيو آراءهما في التاريخ ودراسته كما استفادوا من رسالة بيرك عن الجميل والجليل.

وتجمعت التيارات الفكرية كلها في ألمانيا وأعان الشعر الفلسفة ونشأت نظريات في التاريخ وفلسفته وكانت الفكرة الغالبة على هذه الحركة هي فكرة التطور التاريخي التي بدأها لنسج وأنماها هردر وجيته وبلغت نهايتها في فلسفة هجل. وكانت هذه التصورات الجديدة للحياة والتاريخ تتطلب أفقاً فكرياً أوسع من الأفق الذي أوجدته فردية روسو وفلسفة هيوم. ففي هذا الموقف نبغ (كانت) الذي أحدث ثورة في الفلسفة وجمعها من أطرافها ووضع أساس التفكير الفلسفي للمذاهب الجديدة.

وقد قال الناقد الكبير (تين) في كتابه القيم عن تاريخ الأدب الإنجليزي (أخرجت ألمانيا بين سنة ١٧٨٠ وسنة ١٨٣٠ كل أفكار عصرنا التاريخي. وواجبنا لمدة نصف

قرن - بل ربما لمدة قرن برمته - هو أن نعيد التفكير فيها) وهكذا ظهرت في ألمانيا العبقرية الفلسفية فكانت تاج نمطتها كما ظهرت في إيطاليا عصر إحياء العلوم العبقرية الفنية.

ومصدر قوة الألمان هو القدرة على اكتشاف الأفكار العامة ولم يبلغ أحد مرتبة الألمان في ذلك. وهي سر كل ما بلغوا وكانت هي الملكة المسيطرة على عقولهم. وكانوا بهذه الملكة يجمعون تحت فكرة واحدة الأجزاء المتناثرة لشيء ما. ويرون وراء كل فصيلة من الفصائل الرابطة العامة التي تربطها إلى بعضها وتلائم بين المتناقضات ويستحضرون الوحدة للأشياء المختلفة في الظاهر. وهذه هي الموهبة الفلسفية التي طبعت كل مؤلفاتهم بطابعها. وبما بثوا الحياة في البحوث الجافة وأفاضوا الضوء في مظلم المشكلات وأدركوا أرواح العصور واستخلصوا قوانين التاريخ من أخلاط الفوضى وشوائب الغموض وابتدعوا علوم اللغة والأساطير وأساليب النقد والتاريخ. وكانت كل مذاهب ألمانيا الفلسفية تطبيقات مختلفة لنظرية واحدة وهي نظرية الوحدة المطلقة لهذا الكون فكل مظهر من مظاهر هذا الكون جزء من كل. ولأجل أن نفهمه علينا أن نعيد بناء هذا المجموع في الفكر. وهذا المجموع يتصل بمجموع آخر. وهذا بثالث وهكذا إلى مالا نهاية حتى لا يبقى شيء منفصلاً في هذا العالم وحتى تشمل الدنيا متكونة من مظاهر لا يأخذها الحصر. ولكن هذه المظاهر تفني وتتساقط ، وهناك قوة كامنة في صميم الكون لا يمكن تفسيرها تجدد هذه المظاهر البالية المتكسرة وتردها إلى الحياة ، ولهذا الفكرة تطبيقات لا تعد ولا تحصى.

ولعل أكبر ممثلي هذه الحركة هو الفيلسوف الكبير (هغل) الذي يعتبره الكثيرون من نقاد الفلسفة المكمل الحقيقي لفلسفة (كانت) وهغل رجل شديد الغموض في فلسفته بعيد الشقة على من رآه لا يغتفر لقارئه الجمود الفكري ولا الكبرياء الأجوف ولا بد أن تأخذ له عدته قبل أن تلم بشيء من أفكاره ولا يجمع برجل حسن التثقيف أن يجهل الحركة الفلسفية من (كانت) إلى هغل ، الجهل المطلق لأن

من جهل ذلك فقد جهل تاريخ الحركة الفكرية العالمية. وسألم بها إمامة يسيرة تناسب الإيجاز الشديد الذي أتوخاه.

بدأ (كانت) فلسفته بدم فكرة أن العقل البشري لا يحوى غير الصور التي تنطبع على لوحته من الخارج بطريق الحواس ، وذلك لأني عندما أشاهد جثة رجل قد وافاه الموت من جراء جرح رغب أسأل نفسي في التو واللحظة (من قتل هذا الرجل ؟) فوظيفة الحواس هنا أنها أرثني الجثة ولكن سؤالي لنفسي يتضمن البحث عن السبب. وليس هذا نتيجة التفكير والرؤية ، وإنما هو فيض العقل وبداهة الفكر الذي يربط الفكرة بالإحساس. فالأمر إذن على نقيض ما كان يراه القرن الثامن عشر ، والعقل البشري لا تصوغه التجارب الخارجية ولا توجوده الحوادث وإنما نحن ندرك الأشياء الخارجية لأنها تأخذ شكل عقلا وتنطبع بطابعه ، وكما أن كوبر نيكس عجز في بادئ الأمر عن تفسير نظام الكواكب لأنه فرض أن الشمس والكواكب كلها تدور حول الأرض ولم يهتد إلى التفسير الصحيح إلا عندما أدرك أن الأمر على خلاف ما قدر وأن الأرض والنجوم والكواكب تدور حول الشمس ، فذلك (كانت) بعد أن بدأ يبحث عن تفسير العقل البشري في العالم الخارجي عاد فغير طريقته وثبت له أنه يجب الابتداء بفهم العقل في ذاته وفحص داخلية. ولما كان العالم الخارجي لا يبدو لنا إلا في الصورة التي تصوره بها قوانين العقل البشري ؛ لذلك لا يمكننا أن نعرف القيمة الحقيقية للأشياء الخارجية إلا بعد الوقوف على ماهية قوانين العقل البشري وأي مضطر إلى أن أتصور الأشياء في الزمان والمكان. لا لأن فكرة الزمان والمكان نفذت إلى ذهني من الخارج بل لأنها هي نفسها قانون عقلي ولا يمكنني تقدير هذه الفكرة إلا بدراسة القوانين العقلية..... وبهذا الأسلوب في التفكير قضى (كانت) على فكرة أن العقل أشبه باللوحة ينطبع عليها المؤثرات ، واسترد العقل البشري حقوقه المضاعة ومواهبه المنكورة ، ولكن الجو الفكري لم يلبث أن غام وساور النفوس القلق وخيف أن يعود الشك القديم الذي لاقى كبار الفلاسفة القدماء عناء عما في رد عرامه وإنقاذ النفوس من وساوسه ويستفحل أمره وتستعصى عنته ؛

وذلك لأن (كانت) ترك الروح البشرية كاخبوسة ترقب العالم الخارجي من وراء قضبان الحواس وأثبت أن الدنيا التي نراها هي الدنيا كما تصورها حواسنا. وهنا ظهر (فخته الفليسوف) وقال إن الدنيا من خلق عقلنا. وأدهش مرة سامعي محاضراته بقوله في نهاية إحدى محاضراته (غداً يا سادة سننتقل إلى خلق الله).

في هذا الموقف العصيب وافى العالم (هجل) وفي يده عصاه السحرية التي جاء بها بالمعجزات ، وهي أسلوبه في المنطق المسمى المذهب الجدلي ، وحاول (هجل) أن يمحو التناقض بين (الأنا) و (غير الأنا) فقال إن الاثنين مظهر للمطلق وحاول الاهتمام إلى المطلب بدراسة الروح البشرية. والمطلق هو باعث الحياة في الكون وليس هو فكرة مجردة وإنما هو مصدر حقيقة النفس والالانفس. وهو في حالة صيرورة دائمة ولا يمكن تفسير الكون والطبيعة والتاريخ إلا بالرجوع إلى المطلق الذي يتراءى خلالها. وكانت فلسفة التاريخ من الأركان الأساسية في فلسفة (هجل) ؛ لأنها قائمة على المطلق الذي من شأنه أن يصير شاعراً بنفسه في التاريخ ، ومن ثم أصبح للتاريخ أهمية كبرى لأنه يفسر ترقى المطلق وتكشفه حيناً بعد حين. وقد رحب عالم الثقافة بهذه الفلسفة كل الترحيب واعتدها حلماً مقبولاً لمسائل طالبت معالجتها وأثرت تأثيراً بالغاً في الثقافة عامة وفي دراسة التاريخ خاصة. ولا يزال أثرها بادياً إلى اليوم حتى في بعض الكتاب الذين يرفضون فلسفة (هجل) ويعيدونها دعوى عريضة وجراًة مقبولة.

وقد ترك (كانت) التناقض بين النفس وبين الشيء في نفسه ، وحاول شاخ وفخت التوفيق بين الاثنين بإلغاء أحد الجانبين. أما هجل فحاول أن يوفق بين الاثنين ويلائم بين عالم العقل وعالم المادة وبين الروح والطبيعة وعالم الفكر وعالم الواقع ؛ لأنه رأى أن كل هذه المتناقضات تضمها وحدة الفكر ولأن المطلق هو الشعور المدرك الذي يُردُّ إليه كل شيء ويجد فيه ما يبرر وجوده ويفسر معناه.

ويعتقد هجل أن هذا المطلق يمكن إدراكه بالعقل ، ومن ثم هو خصم لدود لمذهب اللاإرادية من ناحية وللمذاهب الصوفية من ناحية أخرى. والمطلق في زعمه روح

حية دافقة تنبعث منها كل المظاهر الزائلة وتحقق كل الصور. وإدراكه هو غرض الثقافة والفلسفة والدين والعلم.

ويوجد المطلق أولاً في صورة فكرة نقية ثم يهبط عالم الطبيعة غير الشاعرة ثم يسمو إلى درجة الشعور في الإنسان ويتحقق أكثر فأكثر في النظم الاجتماعية ثم في الفن والدين والعلم ثم يعود إلى نفسه ثرياً حافلاً.

وتقتضي وحدة الفكر أن نتصوره على أنه وحدة المتناقضات ، ففي الحياة الدارجة يدرك فهمنا جزءاً من الكل. وهذا الجزء بضرورة الحال ليس كاملاً في ذاته بل يدل على شيء آخر. ولسنا نصل إلى الحق إلا بتأمل الجانبين. وفي ترقى الفكر تنتقل كل فكرة إلى نقيضها ولا نصل إلى الحق إلا عندما نعتبر الجزئين مكملين لبعضهما البعض. ويسمى (هجل) الانتقال من أبسط الأفكار إلى الأفكار المركبة بطريق النفي والتناقض منطق الفكر **Dialectic of thought** وهذا المنطق قائم على الإقرار بالتوافق بين المتناقضات. فكل تأكيد دليل نفي وكل نفي يدل على تأكيد وهذا القانون يسير من حالة إيجابية **Thesis** إلى حالة سلبية **Antithesis** ومنها إلى حالة مترتبة من الاثنين أي حالة سلبية إيجابية **Synthesis** ، وهكذا تترقى المتناقضات إلى حالات تركيبية سمي ، وقانون المتناقضات في المنطق الذي يقول بعدم اجتماع النقيضين يعنو لمنطق أسمى هو منطق الحياة الذي يقول بأن الحقيقة مكونة من المتناقضات ، وأن الكل هو الحقيقي وكل ما خلاه ظل وترائف. والحقيقة الجزئية هي محض تجريد ولا قيمة لها إلا عند ما تتصل بالكل. وكل ما في الوجود خاضع لهذه الحركة الثلاثية من أبسط الكائنات إلى أسماها. فالفكرة تترقى من التجريد الذاتي البسيط إلى الوحدة والدنيا تسير هذا السير. والطبيعة والتاريخ والفلسفة تمثله فالبذرة داخلها شجرة البلوط ولكن شجرة البلوط عند نمائها تنفي البذرة وتحققها معاً. والطفل طيه الرجل ولكن الرجل ينفي الطفل ويؤكد معاً ، والتاريخ يمثل ذلك في مجال أوسع وتنتقل الحضارة في تطورها من دور إلى دور بتأثير تفاعل الميول وتباين

التراعات ، فعصور السلطة تتلوها عصور الفوضى ثم ينشأ من الاثنين عصر حرية
أسمى ، فالكون إذن في نظر (هجل) تطور شامل يتراءى المطلق خلاله.
هذه لحظة من تلك الفلسفة التي غمرت العالم في أوائل القرن التاسع عشر وأثرت أيما
تأثير في نفوس كبار المفكرين وملأت الجو الفكري بالأفكار والتأملات.
بين هذه التيارات الفكرية القوية والحركات الناشطة ظهر كاتبان مؤرخان بينهما
وجوه كثيرة من التشابه والاختلاف وأخص صفة يشتركان فيها هي أنهما يعبران إلى
حد كبير عن روح عصرهما ، ومثلان نزعة القرن التاسع عشر التاريخية في أوضاع
صورها ، أحد هذين الكاتبين (توماس كارليل) نشأ في هضاب اسكتلندة وفي أشعار
جيتي والفكر الألماني. والآخر هو أرنست رينان الذي نشأ في براري بريطانيا وتشبع
بالفكر الألماني. وهذان المؤرخان الكبيران كلاهما مؤثر للأبطال والعبقريين ساخر
بالجماهير والجماعات يرى أن خلاص الدنيا هو أن يسيطر على أمورها فئة من
العلماء الأشراف وكلاهما رزق إلى حد كبير تلك الحاسة التاريخية النادرة ، وهي
القدرة على استقراء نفسية أهل العصور السالفة والنفوذ إلى مسالك خواطنهم
ومضطرب أهوائهم ، وبفضل هذه القدرة صار الأول مؤرخ أكبر ثورة عرفتها
القرون الحديثة وهي الثورة الفرنسية وصار الثاني مؤرخ أكبر انقلاب في العصور
القديمة وهو ظهور الديانة المسيحية. وكلاهما أضاف إلى طبيعته السرية ومواهبه
العالية التوسع في الاطلاع والصبر على الاستقصاء فكان الأول أول من فتح أبواب
بلاد الإنجليز للأدب الألماني وأول من أسمع قومه كلمات (جيتي وفخته) ونوفاليس
ورختر وغيرهم من عظماء الألمان. أما الثاني فقد طاف به اطلاعه الواسع وخياله
الجوال على أطلال بابل وأشور وآثار العبرانيين ، حتى استخلص تاريخهم من نواحي
الغموض وأرسل عليه أشعة لا تزول. وكان كلاهما من الحين إلى الحين يعود من
رحلته في الماضي ليتناول مشكلات عصره وأزماته المستحكمة فيدي فيها بالرأي
الموفق والحكم التزيه ، وظهر كلاهما في أوانه فكان نتيجة منطقية للمقدمات التي
ألما إليها إذا كان البحث الألماني قد مهد السبيل وجمع المواد وأوجد الصيغ

والمقاييس فنفخ كل منهما الحياة في تلك المواد المكدسة وصبها في القالب الفني ومنحها حرارة القلب وأراق عليها ضوء العبقرية ، وكان كلاهما ينظر إلى التاريخ تلك النظرة الكلية فيراه دراما كبرى تمثلها الأمم على مسرح الليل والنهار الذي تضيئه الشمس والأقمار والنجوم الزاهرة. وكان يغلب على كليهما الإحساس الديني والشعور الأدبي المتجه إلى خوالج الضمير وخفايا النفس ، وكان هذا في نفس (كارليل) من تأثير الوراثة (البيوريتانية). أما (رينان) فقد ورث عمق العاطفة الدينية وقوة الشعور الأخلاقي من أجداده السلتيين. وقد نشأ في جو مفعم بالحزن مخفوف بالجلال ينمي في الإنسان المشاعر الغامضة والإحساسات الدينية ؛ لأن هنالك في تلك البراري الموحشة من مقاطعة بريطانيا حيث تهدر أمواج البحر المزبدة الطاغية ، وحيث الفضاء المتجهم والسحب المتراكبة تستولى على الإنسان الكآبة ويفارقه المرح ومن ينشأ في تلك الأرض العارية الخاسر وبين كسور الصخور يتضاءل في نفسه الشعور بالعالم الخارجي رويداً رويداً ، ويستجمع كل قوته ويوجه كل فكره إلى مسألة المصير والمآل وما وراء الحياة الحاضرة. ولقد تفتحت في نفس (رينان) أزاهير من التفكير غامضة مثل المحيط الهادر الساخر الذي يضرب شواطئ بريطانيا مهجورة مثل صخورها الصم الأوابد ونسم أريج تلك الأزاهير في صفحات كتبه فلطف من شكوكيته وجعلنا نستعذب كلماته ونعطف على أفكاره عندما يتخونها المنطق القوي والفكر السديد.

هذه بعض وجوه الشبه بين هذين الرجلين الكبيرين. وهناك فروق جوهرية بينهما. قال أمرسن عن كارليل (علمه حقيقة يثقلك بالشكر. ولكن لقنه نظرية يخسر منه بل ربما كال لك الشتم) وهذا رأي كاتب كبير وناقد أديب ربطته بكارليل أواصر صداقة ظلت متينة حتى توفاهما الله. وقد أصاب فيه الحقيقة وأجل وصف تلك الصفة العقلية التي امتاز بها (كارليل) وهي مصدر قوته وضعفه ، وتلك الصفة هي شدة شغفه بالحقائق الواقعة وكراهيته للنظريات ، أما (رينان) فلعله كان أشد كلفاً بالنظريات من (كارليل) كان كارليل يجعل النظرية حقيقة ملموسة فيستخرج من

الفكرة عاطفة من المبدأ شخصاً ومن الفلسفة تاريخاً ، بل كان يطلب إلى الشعراء أن يقتصروا على التغي بالحوادث التاريخية ، وبلغ به الإغراق في ذلك أن صرح مرة بأن أهمية شكسبير في نظره هي لأنه كتب رواياته التاريخية وأنه يكبره لأنه يرى فيه أكفأ شاعر في القدرة على نظم تاريخ الجزر البريطانية شعراً ، أما (رينان) فهو على نقيض ذلك إذ كان ولوعاً بأن يستنبط من الواقع الملموس نظرية وأن يخرج من التاريخ بفكرة عامة. ومن ثم ميله إلى التعميمات العريضة والنظريات الشاملة. وكان عندما يزن قيمة شعب من الشعوب يجعل الفكرة التي أوجدها هذا الشعب ميزته ومقياسه ، وقد تركت هذه الصفة العقلية أثرها في أسلوب (رينان) ، فبعثنا تبحث فيه عن حرارة (كارليل) وقوته وبراعة تصويره الفائقة المنقطعة النظير في الأدب الحديث وعن تلك الصور العجيبة التي لا ترى لها مثيلاً إلا في شكسبير ، وأسلوب (رينان) رقيق ناعم إلى حد الهيف واستعاراته ليست في غاية الإحكام والجلاء ، وقد أصاب الناقد التقدير جيل لمر عندما قال في مقاله الممتع الفكه عن (رينان) هو (فنان ولكن أسلوبه أقل الأساليب تصويراً) ، أما صوره التاريخية فإن الكاتب لا يحاول أن يباري بها ريشة الرسام وحسبه أن يصف حياتها الداخلية ونوازعها الخفية ، وصيغ الاعتدال وتحاشي المبالغة والتأكيد كثيرة في كتاباته مما يدل على بعده عن التعصب وشدة اعتقاده بأن الحق شيء نسبي ، ولا تلمح في كتاباته أثر التهويل ولا تسمع صدى تلك الصرخات العالية التي جعلت جماعة من النقاد يشبهون (كارليل) بالنبي أرميا صاحب المراثي المشهورة.

ولعل الفرق بين أسلوب (كارليل) وأسلوب (رينان) كالفرق بين الجلال والجمال ، فإن أسلوب كارليل قوي جليل ينحدر انحدار الآتي في صحة وأسلوب (رينان) جميل طلي ينساب في لين ورفق كالعيون الجارية فهو أسلوب ملائم لهمسات الوحي الداخلي معبر عن لغة الضمير العاكف على نفسه يروي لنا أحلامه عن الحياة والوجود ومشاعره الغامضة الخفية إزاء هذا الكون الغريب ، ولرينان روايات فلسفية ألبس فيها الأفكار ثوب الأشخاص ولكن هذه الروايات نفسها تدل على

سعة الفكر وازدحام الخواطر وتتم في نفس الوقت على ضعف القوة التصويرية والبراعة الدراماتيكية ؛ لأن هؤلاء الأشخاص ليسوا أشخاصاً من لحم ودم وإنما هم أشخاص خياليون يجرى في عروقهم أثر غير محسوس ويلمح القارئ أثر ذلك في هذه المحاورات ، فإن رينان لم يرسم ملامح هؤلاء الأشخاص المتحاورين ولم يصف ملابسههم ولهجتهم في الحديث ومكان حوارهم.

وقد تركت الروح العلمية التي سادت في القرن التاسع عشر أثراً عميقاً في نفس رينان على حين كان كارليل يقاومها ويسخر برجالها وكراهة كارليل لدارون والدارونية معروفة ، وقد أثرت الروح العلمية على تصور رينان للتاريخ ورجحت فيه النظرة الكونية العلمية للأشياء على النظرة النفسية الفنية وأفسحت السبيل لتلك السخرية الباسمة التي غلبت على رينان وصارت طبعاً مألوفاً ملازماً له حتى عندما يتناول الكتابة في أخطر المباحث وأقدس الأشياء ، مما كان يثير عليه سخط ذوي القلوب الجادة الكريمة والنفوس الصالحة الورعة ، إذ كان يؤلمهم ويجرح إحساساتهم الشريفة أن يتناول (رينان) هذه المسائل التي كلفت الإنسانية غزير الدموع وذكي الدماء وجشمتها الجهود المضني وجرعتها مضض التضحية ومرارة الحرمان. بسخرية المهازئ وابتسامة التشكك. وإن لكل إنسان نصيبه من النظرة الكونية العلمية وقسطه من النظرة النفسية الفنية ، وإن كان يتفاوت النصيب ويختلف القسط حسب المزاج الشخصي ، وفي ملابسات الحياة حوادث شخصية تجعلنا في بعض الأحيان نحصر تفكيرنا كله في شخص بعينه ، وذلك عندما تستولى علينا عاطفة الهيام بمحجوب أو الشوق إلى صديق أو الأسف والتوجع لفقد عزيز فنوجه أفكارنا كلها إلى صوبه ونرى في عالمه الصغير مالا نراه في العالم الكبير ، بل يصير اهتمامنا بذلك الشخص أشد من اهتمامنا بظواهر الطبيعة وعجائب الكون. وقد أجاد الأستاذ العقاد وصف هذه الحالة النفسية في قصيدة له غزلية رائعة بقوله:

وإن رياض الأرض ليست تسرني بشيء ولحك منك بفعم خاطري

وأحسن المتنبي وصف هذه الحالة في قوله يرثي جدته
وما انسدت الدنيا عليّ لضيقها ولكن طرفاً لا أراك به أعمى

وَألم بها الشريف الرضي ؛ في قوله يرثي صديقه أبا إسحق الصابي
صاقت علي الأرض بعدك كلها وتركت أضيقها على بلادي

فهذه هي النظرة النفسية في أقصى درجاتها. وتغلب علينا النظرة الكونية في أبسط مظاهرها عندما نبحر في سفينة ثم ندير الطرف حولنا فترى السماء في رزقتها والبحر في امتداده وعظمته والشمس في جلالها وفي الليل تنتشر النجوم التي لا نستطيع عدّها وتزين السماء فنحس بضؤولة الإنسان وتفاهة مساعيه إلى جانب عظم الكون وأبديته ، والنظرة الفنية تغلب على المؤرخ الذي ينفق عمره ويوقف جهده للبحث عن الحقائق البشرية ويعد ثورات البشر أكبر الحوادث ويعتبر انقلابات النظم وسقوط الدول وقيام الحضارات هي كل ما في الوجود ، وتغلب كذلك على الفكر الأخلاقي الذي لا يفتأ يصوب الطرف ويصمده في آفاق النفس الإنسانية ، يستقري حوافزها المتسربة وأوجالها الخفية أو الشاعر الذي يفيض شعوره على الأشياء. وتغلب النظرة الكونية على العالم الجيولوجي الذي ينظر في تاريخ الإنسانية في مدى الملايين من السنين والعالم الفلكي الذي يجيل طرفه بين الكواكب التي لا تعد. وقد كان (رينان) يتردد بين النظريتين وتتوالى على نفسه الحالتين ، وهذا هو السر في سخريته الباسمة ؛ لأن السخرية متوقفة على طريقة النظر إلى الأشياء. فأنت إذا نظرت إلى النمل من منظار مكبر لم تتمالك عن الابتسام. كذلك إذا نظرت إلى الحياة البشرية من بعيد تضاءلت في ناظرك الجهود البشرية وهانت عليك الآمال العزيزة وأشرفت على البشر أشراف جلفر الرحالة على سكان (ليليت) ، ووجدت الحياة فرصة ساحة للتسلي والسخرية ، ومن هنا ابتسامة السخرية التي لم تبحر ثغرينان. وهذه النظرة الكونية تطفئ الحماسة وتغري بالاعتدال لأن المتأمل يرى

تنازع الإرادات القوية والإرادات الضعيفة وضلالات العقول ومصارع الشهوات ، ويرى كل جيل من أجيال الإنسانية المتلاحقة يعمل لغاية غير التي ينشدها ويحقق غرضًا ليس له به سابق علم. ومن هنا جاء التسامح الريني والاعتدال الفلسفي وعدم اطمئنان رينان لأهل الشعب والتشدد والصلابة ، وهذا ما حداه على أن يسخر من القديس بولس ، تلك السخرية الرقيقة المهذبة التي لا أملك أن أقاوم الإغراء على نقلها هنا وهو قوله في كتاب (ضد المسيح) (قضى القدر الغيور أننا في مسائل كثيرة من المسائل التي تثير أشد اهتمامنا لا نستطيع أن نخرج من الظل المظلم، حيث تقيم الخرافة ولنكرر هنا مرة أخرى أن مسألة موت الرسولين بطرس وبولس لا يفصل فيها سوى الفروض. سيما موت بولس فإنه ملفوف في الغموض. وبعض العبارات الواردة في سفر الرؤيا المكتوب في آخر سنة ٦٨ أو أوائل سنة ٦٩ ميلادية تجعلنا نميل إلى التفكير في أن مؤلف هذا الكتاب كان يعتقد أن بولس كان حيًا عند كتابة كتابه ، ومن المستحيل أن تكون خاتمة الرسول العظيم مجهولة كل الجهل وقد يكون طاح به المرض أو أهلكه الغرق أو قضى نحبه في حادثة أخرى أثناء الرحلة الغربية المعزوة إليه في بعض النصوص ، ولما لم يكن حوله أحد من تلامذته النابهن لذلك ستظل تفاصيل موته مجهولة وإن كانت قد أتمتها الخرافة ، وفي الحق أن في فكرة الموت الغامض يمحى بالرسول الصحاب ما تستروح به نفوسنا. وبودنا أن نتصور بولس قد غلبه الشك وأدركه الغرق مهجوراً قد خانه رفقاؤه واحتواه اليأس ، ويسرنا أن نعلم أن الحيرة قد عادت إليه مرة ثانية ، وأن ارتيابنا الرقيق ليثار لنفسه بعض الثأر لو أن أشد الرجال تشددًا في عقيدته مات مسلوب الأمل على شاطئ أحد الأنهار أو في أحد طرق أسبانيا وهو يقول لقد أخطأت).

ولرينان مثل سائر كبار المؤرخين وعظماء الكتاب فلسفة حياة مستقرة خلف كتاباته يستشهد بها في تناول مشكلات الحياة والكون والاجتماع. وفلسفة رينان مستمدة من هجل بل هي فلسفة هجل ملطفة مصقولة منقولة من عالم الفلسفة والتجريد إلى

عالم الأدب والفن ، ولكنها مقتبسة من هجل في المعنى الذي يقال فيه أن الدور التي نبتنيها مقتبسة من الغابات والحاجر .

وكان رينان يجمع إلى فلسفته الهجلية شدة الإيمان بالعلم . ولكن فكرته عن العلم لم تخل من نقص فقد كان يلحق بالعلم العلوم الطبيعية وعلوم اللغة والتاريخ ، وكأنما أراد القدر أن يسخر في دوره من (رينان) الذي كان لا يؤمن بفكرة خشية أن تتدعه . فقد آمن (رينان) بأن التاريخ علم ، وجارى في ذلك أهل عصره وغاب عن علم (رينان) أن التاريخ ليس علماً كسائر العلوم ، إذ ليس في وسعنا أن نتنبأ فيه بنتائج الأشياء بطريقة غير قابلة للخطأ ، كما نتنبأ في التجارب الكيميائية والعمليات الطبية ومقاييس الفلك ودورات النجوم . والفرق الجوهرى بين العلم والتاريخ هو أن العلم يرى سمات الأشياء وأشكال الموجودات . أما التاريخ فإنه لا يعلق أهمية كبرى على هذه السمات إلا إذا فسرهما ، ونفذ إلى باطنها . والتاريخ يعمل على إحياء الموتى وتصوير أفكارهم وأهوائهم ، وهذا يقوم على الإنشاء والخلق فالتاريخ من هذه الوجهة أشبه بقصيدة عامرة مادتها متعارفة وقصتها مشهورة . أو هو ملحمة حوادثها مروية وأشخاصها معلومون ، أما للعلم الوضعي فليس هذا شأنه وإنما قصاره أن يبحث عن الروابط والصلات بين الأشياء ، وهو لا يحاول أن ينفذ إلى ما وراء ذلك وحسبه أن يتناول الأشياء بالمقياس والميزان ، ويدير عليها التجربة والملاحظة ويطبق قانون السببية ، وعندما يهتدي إلى طريقة تنسيقها فصائل وطبقات ينفذ يده وينتهي عمله ، فهو لا يبحث عن أصل الحركة ولا عما يحدث داخل الذرات ، على حين أن التاريخ يحاول الوصول إلى دخيلة الذرات الإنسانية ، ولا يكتفى بتقرير فتوحات الإسكندر وأفاعيل (أتلا) ومواقف صلاح الدين ، وإنما يحاول أن يقرأ فكرهم ويتغلغل إلى صميم شعورهم . وعلى المؤرخ أن ينقل نفسه بالخيال العاطف والبدئية الموفقة مكان هؤلاء الأبطال ويقف من الحياة موقفهم لينظر الأشياء بعيونهم ويحسب بإحساسهم وهذا جميل في ذاته وبراعة فنية غير منكورة ، ولكن على شريطة ألا تموه علينا حقيقتها وألا نتزع لها الصفة العلمية غصباً ونكره العلم على

قبولها إكراها ، وقد أحسن المسيو (بولان) في قوله عن (رينان) في كتاب (أدب السخرية) ، (رينان الذي فهم سخرية الفضيلة لم يستوف التفكير في سخرية العلم وربما كانت العلة في ذلك أن فضيلة رينان أكبر من علمه).

وكان رينان أن قانون العلم الأعلى هو السببية التي تنافر كل معجزة وتنكر كل شذوذ عن سنين الطبيعة. وقد أوسع هذا الاعتقاد شقة الخلاف بينه وبين رجال الدين وجعله يشتبك معهم في جملة مواقع. ولكن رينان مع هذا الإنكار ظل محتفظاً بروح الدين من حيث هو الإحساس بوحدة الأشياء والإيمان بالمثل الأعلى ، على أن الشك كان أقوى أثراً في نفسه من أن يترك له عقيدة سليمة وفكرة غير مزعزعة. ففكرة إنكار المعجزات التي ردها في هذه احوارات وعدها من يقينياته الثابت ووقف إلى جانبها طويلاً ، لم تسلم من شكه فقد كتب في كتابه (أوراقاً منشورة) يقول (إن آلاف الأعوام ليست شيئاً في لا نهائية الزمن وما نسميه زماناً متطاولاً يتقاصر إذا قيس إلى دهور أبعد مدى. والكيميائي عندما يقوم بتجربة ويحدد لها سنة كاملة فإنه لا يلمس جهازه في غضوفها وكل ما يحدث في أنايقه يخضع لقوانين اللاتنهي المطلقة ، ولكن هذا يتفق عام الاتفاق مع تدخل إرادة في مبدأ الأمر وتدخل إرادة في نهاية التجربة. وخلال هذه الفترات تتولد في الجهاز ملايين الميكروبات ، ولو أن هذه الميكروبات رزقت العقل لساغ لها أن تقول بأن هذه الدنيا لا تسيطر عليها أية إرادة وسيصدق قولها بالنسبة لدائرة تجاربها ، ولكنها ستخطئ من حيث النظر إلى الكون في جملته الشاملة) ، وكتب في موضوع آخر في نفس الكتاب (إن ما نسميه زماناً لا نهائياً ربما كان فترة بين معجزتين. وهذا هو كل ما نستطيع قوله عن الحجب وراء الزائل الحدود. فليكن مذهبنا ألا ننكر شيئاً ولا نؤمل شيئاً وأن نؤمل في كل شيء).

وكان رينان يذهب إلى أن الإنسان يرى في أعماق نفسه صورة المثل الأعلى مرتسمة. وهذا التصور للمثل الأعلى المستقر في صميم الإنسان هو ما يسميه رينان (الله) ، ولكن هل الله هذا مجرد إدراك تصوري في العقل البشري أم هو حقيقة أيضاً؟ رينان لا يقطع في ذلك برأي وتراه يتردد بإزاء ذلك بين لا - ونعم. وهو يرى أن

هنالك خالقًا يدخل المثل الأعلى في الواقعي. ولكننا لا نعرف عنه شيئاً أكثر من أنه كائن فهل يوجد شيء وراء الطبيعة ؟ نعم يوجد وما الطبيعة سوى مظهر. وما الإنسان إلا صورة. وهنالك الأبدى الذي له الدوام. كما يقول المسلمون. وهو الأب الذي خرج منه الجميع وإليه يعودون ، والمثل الأعلى عند (رينان) هو (الفكرة) كما يتحدث عنها (هجل) فهي الروح المتطورة في هذا الكون. ومن ثم كان الدين الحقيقي هو معرفة الدنيا وفهم الإنسانية ، وكانت الطبيعة والتاريخ أدل على المقدس من صيغ اللاهوت وطقوس الدين.

ورينان لا يمل من ترديد فكرة أن في أعماق الكون إحساساً غامضاً ولكنه على ما به من غموض هو المحرك للدنيا وهو أشبه ياله (موجود بالقوة) ولكنه سيوجد (بالفعل)، وفكرة الواجب قائمة على أن ننفذ مشيئته. والعمل الذي تدأب من أجله الإنسانية سيتم عاجلاً أو آجلاً ، فإن أمامه فسحة الأبد. وسيتحقق المثل الأعلى في النهاية وينضج الشعور العام. والأفراد زائلون وليس لهم نصيب من الخلود إلا بمقدار ما أدوا من خدمات للكمال فهل نحن مخدوعون ؟ نعم. ولكن هذا الخداع منطوق على معنى ؛ لأن الطبيعة تستغلنا لغاية تريدها وتعمل على خداعنا لتحقيق تلك الغاية. والفضيلة ذاتها ضرب من خداع الطبيعة. والشر هو الثورة على الطبيعية ورفض أوامرها ، وإذا أبعدنا النظر وجدنا أن خداع الطبيعة ليس خداعاً مطلقاً ؛ لأن الدنيا متجهة إلى الإحساس بنفسها أكثر فأكثر والإنسان خالد في (الله) ، ومسألة الزمان والمكان تتلاشى في المطلق. وفي (الله) تحيا كل الأرواح. وحاول ريان أن يهدئ حيرته باليقين والحب كما في قوله (أيها الأب السماوي ! لست أدري ما الذي خبأته لنا. وهذا اليقين الذي شئت ألا تمحوه من قلوبنا هل هو عزاء أهملت قلوبنا إياه لكي نختمل شهوة وجودنا ؟ وهل القنوط هو الحق ، وهل الحقيقة محزنة ؟ لقد شئت ألا يكون جواب جلي على هذه الشكوك حتى لا يفقد الاعتقاد في الخير جزاءه وحتى لا تقوم الفضيلة على التقدير والحساب ، فبوركت في خفائك ودمت لحفظ الحرية النامة لقلوبنا).

وإذا كان الله غير ظاهر فإنه سيظهر. سيظهر في الطبيعة وفي التاريخ والعلم سيحقق الله. وسيجعل الكون بالعلم على مقدار من الشعور أتم وأشمل ، حيث تمتزج كل المشاعر. والعلماء هم الذين يعينون على خلق هذا العصر. ورينان يرى قداسة العلماء ويحلم بسيادتهم المطلقة. وهذا منشأة رأيتة عن الأرستقراطية وحملتة على الديمقراطية ، لأن فيها القضاء على التفوق العلمي والفني. وتصور رينان عصرًا يتسلح فيه العلماء بقوة العلم ودقيق مخترعاته ويخضعون القطيع الإنساني لأمرهم ويذيقون من يخرج عليهم النكال ويصلونه النار الحامية. وعلى الإنسان ألا يترث في أن يضحى بنفسه إذا علم أن في هذه التضحية خيرًا للعلم ونفعًا للأجيال المقبلة.

وهذه الأفكار وأمثالها هي فلسفة هجل في الأسلوب الريناني ، على أن رينان لم يقل هذه الأفكار بلهجة الواثق ؛ لأن الشك كان عنده فريضة أدبيه وحلية فنية ، وكان يناقض نفسه من الحين إلى الحين ، ويتردد بين نعم ولا ، ويوقف فيوض القلب بأحكام العقل ، ويلطف الحماسة بالسخرية ، ويرى أنه ربما لا يكون هنالك شيء بعد كل ذلك ، وهذا هو السر في أن رينان كان يدخل الفكاهة في مواطن الجسد ، ويمزج الفلسفة بالأدب. وحرص رينان على أن يجتذب الجمهور ويتراضاه فاستزاد من السخرية والفكاهة واستكثر من الألاعيب اللفظية ليروع ويعجب ويفتن ويخلف ويرقص على كل جبل ويتغنى بكل لحن. ورينان على تناقضه وشكه حافل بالأفكار مزدحم النفس بالإحساسات ، ولكنه لا يتخذ في تفكيره خطة واضحة ولا يلون أفكاره بلون حاد ، وإنما ينفلت بين خفي الظلال ومبهم الألوان.

وتأثر رينان بفلسفة هجل والتزامه هذا الموقف الفكري مال به إلى نزعة فكرية من التزاعات التي اشتهرت في القرن التاسع عشر (وهي الدلتانترزم) ، وخطة أنصار هذا المذهب هي رفض الاستمساك بالأفكار وتجنب الاستعماق في فهم الأشياء ، وإنما مطلب صاحب هذا المذهب هو المتعة والتسلي ، فهو لا يعادي مذهبًا من المذاهب ولا تضيق أخلاقه بخطة من الخطط ، بل هو يعطف على كل شيء من بعيد عطفًا أفلاطونيًا ؛ لأنه يعتقد أن لكل شيء ما يبرره وجوده في هذا الكون الذي تجتمع فيه

المتناقضات ، فهو يسلم بكل المعتقدات والمذاهب لا على أنها حقائق بل لأنها تعبر عن حالات للروح يستطيع أن يتذوقها ويستمتع بها ، وقد كان رينان يرى في نفس سخافات (نيرون) متعة للاستطلاع ومنفذاً للفكاهة والتسلي. وليس هذا الموقف في وسع كل إنسان ؛ لأنه يستلزم الشك المصفى والفن المهذب وهو نتيجة لازمة للحركة الرومانتية ، لأن الوقوف على أفكار الأمم في مختلف العصور وتأمل أحلام الكون التي صاغتها أخيلة الشعوب ، مما يؤدي إلى هذا الموقف ، وقد كانت نفس رينان مسرحاً لهذه التزعة ولم تخل الروح الدينية المستقرة في أعماق رينان من أثرها في تكييف هذه التزعة ، إذ جعلت رينان يميل إلى دراسة الأديان فركع خياله ساجداً في مواقف جمة ، واستنشق جملة مباخر وكرر توسلات مختلفة وصلوات متباينة وألم بأفراح الأديان ومسراتها وشجونها وأحزائها ، وآب من هذه الرحلة يبشر بالتسامح والاعتدال ويدعوا إلى المصافاة بين الأديان ؛ ويرى أن محاولة اقتلاع أصول دين من الأديان معناها القضاء على سائر الأديان.

وقد قضى رينان حياة طاهرة نقية أشبه بحياة القديسين الأبرار ؛ ولم يرد على أحد من شائقيه ومنتقصي فضله ، ولم يتملق أمته فلم يغمس في أطراء فرنسا ، ذلك الأطراء الأجوف الذي أولع به بعض الكتاب الفرنسيين. وبعد الحرب السبعينية وهزيمتها ، لم يضع وقته في إراقة الدموع وندب الحظ والحض على الانتقام بل عمد إلى شرح حقيقة الموقف لأمنته وتبصيرها بالأخطاء التي جرت عليها الولايات. وكان يكره الجدل في محادثته كما يكرهه في كتاباته ويميل إلى الاتفاق مع محادثة وتجنب المعارضة، ويرى مهزلة الحياة بقلب عاطف ولكنه لا يأخذها مأخذ الجد ، ولذا عاب على بطله (مركس أورلياس) صرامته وسخر بالرسول (بولس) لفرط تعصبه. وكانت رحلته الدنيوية سعيدة مكالة بالنجاح أزهىها المتفاوحة أكثر من أشواكها الدامية ؛ وقد أحبته النساء الثلاث اللواتي يهتم الإنسان حبهن ، وهن شقيقته وزوجته وابنته. وقد لاقى منيته في هدوء جدير بحكيم مثله ، فكان يقول في ساعته الأخيرة (إن الموت هو قانون الطبيعة فلنخضع له صابرين) ، وقد روى عنه (أدمون دي جونكور) في

يومياته حادثة لا تخلو من تصوير صادق لأخلاقه ، وقد حاول رينان أن يشكك فيها ولكن ما عرف عن آدمون جونكور من الأمانة في الرواية وتحري الدقة في التصوير يجعلنا نصدقه ونبسط العذر لرينان لاضطراره إلى التشكيك في الرواية ، وسأنقلها هنا موجزة تجافياً عن الإطالة قال دي جونكور (ذهبت لتناول الغداء في (البربان) يوم ٦ سبتمبر سنة ١٨٧٠ فرأيت رينان على المائدة الكبرى في القاعة الحمراء يطالع في صحيفة ويشير إشارات بذراعيه تدل على اليأس. وجاء سنت فكتور ونفتزر ودي مسنيل وبرتلو وغيرهم وجلسنا جميعاً نتناول الغداء ، وجرى بنا الحديث إلى ذكر الهزيمة الكبرى والعجز عن المقاومة وعدم كفاية رجال الدفاع الوطني ولعنا الهمجية البروسية ، فقال أحد الحاضرين (إن الأسلحة التي تستلزم دقة في الاستعمال لا تلائم مزاج الفرنسيين. وجنودنا يميلون إلى إطلاق النار بسرعة ثم إشهار الحرب عقب ذلك ، وإذا أردتهم على غير هذا التواء في يدك وشتت حركتهم ، فجعل الفرد آلة لا يصلح لهم على حين إنه سر تفوق البروسيين).

فرفع (رينان) رأسه من الطبق وانفجر قائلاً (في كل شيء درستته هالني تفوق الذكاء والجهد الألماني. فليس غريباً تفوقهم في فن الحرب الذي هو على ضعته فن معقد. نعم يا سادة إن الألماني شعب راق).

فصحنا به من جميع النواحي فجعل يقول وقد ازداد تحمسه (نعم إن الألمان أرقى منا بكثير ؛ لأن الكاثوليكية تعطل المدارك وتوقف تقدم العقل ، على حين أن البروتستانتية تنمي القوى وتشحذ المدارك).

ثم حول (برتلو) الحديث إلى موضوع آخر ولكن رينان ظل مسترسلاً في شرح نظريته لجيرانه وحشد البراهين على صحتها ، فاعترضه دي مسنيل بهذه الملحوظة ، (أما من جهة الشعور بالاستقلال عند مزارعي الألمان فأنا أستطيع أن أقول لك إنني كنت أركلهم ليجمعوا لي الحيوانات المصادة عند تجولي للصيد في برلين).

فقال رينان (إنني أؤثر المزارعين الذين يركلهم الإنسان على هؤلاء المزارعين الذين جعلهم حق التصويت العام سادة لنا).

وشرع (برتلو) يشرح لنا نبوءاته غير السارة ؛ وعندما أنهى شرحه قلت (إذن قضى علينا ولم يبق لنا إلا أن نعد جيلاً للانتقام وهنا صاح بي رينان ونمض من مقعده وقد أحمر وجهه) لا لا لا تقل الانتقام فلتهلك فرنسا ولتهلك بلادنا ، فإن هناك شيئاً أسمى من الوطن ، وهو (الواجب والعقل) ، وأخذ يتلو آيات من الكتاب المقدس بصوت جد مرتفع. بقيت مسألة لا أحب أن أختتم الكلام عن رينان دون الإشارة إليها وهي مسألة علاقته بالساميين ، وكانت بعض فروع هذه المسألة مثاراً للخلاف وباباً لحملة من الحملات السخيفة الموجهة التي برع فيها بعض المعاصرين ، ولكن الذي يعرف صراحة رينان وسمو فلسفته لا تغضبه الآراء التي غص بها من فضل الساميين ووصفهم فيها بما لا يحبوا أن يوصفوا به. وليس من الإنصاف في الكثير ولا في القليل أن نطلب إلى كل باحث نزيه أن يتملق مشاعرنا ويترضى زهونا وسيتبقى آراء رينان قائمة حتى يمحصها ناقد من طراز رينان في غزارة العلم وقوة الفكر والتضلع من الفلسفة فيشبتها أو ينفيها. وقد حلل رينان العقلية السامية في كتاب يعد ذخيرة من ذخائر الأدب وطرفة من طرف البحث ، ويجدر بقراءة الأدب العربي ودراسته واقتناؤه. وأن الشناء لقليل على الجهود الكبير الذي بذله فقيده الأدب والصحافة المرحوم فرح أنطون في نشر الفلسفة الرينانية في ربوع الشرق.

المحاورات الفلسفية

الإهداء

{إلى المسيو مرسلان برتلو}

سألت نفسي غير مرة حيال أفكار معينة في هذه الصفحات كنا نتجاذت عنها الحديث سويًا آلاف المرات أهى أفكارى أم أفكارك. فقدت امتزجت أفكارنا في الثلاثين سنة الأخيرة وتأكدت علاقتنا الفكرية الصميمة ، حتى صار من الصعب علي أن أميز أفكارى من أفكارك. بل ما أشبه محاولة ذلك بمحاولة تقسيم أعضاء الطفل بين الأم والأب. ففي بعض الأوقات كانت جرثومة الفكرة لك ، وكانت تنميتها من عملي وفي وقت آخر كانت الجرثومة لي ولكنك أنت الذي جعلتها مثمرة. فكل شيء صالح استطعت أن أقوله عن الكون في كليته الشاملة أطلب اعتبارك لك. وأنا من ناحية أخرى أدعي لي جانب في تكوين روحك الفلسفية ولا أطلب أكثر من ذلك.

كنت في الثامنة عشرة وكان عمري اثنين وعشرين سنة عندما بدأنا تفكر معًا ، وكنا حينذاك ما نحن عليه اليوم وشبوبيتنا الجادة التي عنت لها آمال سرعان ما خابت تلتها أعوام النضوج المفعمة بالأحزان. فرأينا فرنساترتكس في حمأة الضعة والحقاقة والجهالة عقابًا لها على أخطاء لم ترتكبها. وجيلنا الذي خدعه أولاده الأكبر منا سنًا له الحق في الشكوى. وكل جيل مدين للجيل التالي بالنظام الاجتماعي المؤسس الذي ورثه عن الأجيال السابقة ، وهؤلاء الذين كان عليهم أن يورثونا وطنًا حرًا بعد أن أحدثوا انفجار فبراير القاتل مهدوا السبيل على الرغم منا لكارثة ديسمبر وعندما وطننا نفوسنا على أن تتبع فرنسا في الطريق الذي انساقت فيه هوى كل شيء من جديد ، وأرغمنا على الانتظار خمس سنوات قبل أن يروق الساسة المتنفجين الذين جرروا علينا الولايات أن يعترفوا بعجزهم.

فهل ترى أيامًا أحسن ؟ وهل تكون شيخوختنا مثل أواخر أيام الشاعر العبراني الذي جمع في سرور ، الحصاد الذي زرعه بدموعه ؟ أنت ترجو ذلك وأتمنى أن تكون على صواب ! لقد ارتكبت أخطاء كثيرة حتى لم تبق أخطاء لترتكب. وإذا كانت فرنسا تنوي أن تستأنف لعب دورها الشريف في العطف والحرية واحترام الجميع ، فإن العالم سيحبها وستكون هزيمتها أنفس من أشد الانتصارات تألقًا إذا ضربت للعالم مثل الأمة الحكيمة بلا قادة ، والذكية بلا سادة. وبأي سرور وارتياح. إذن أمحو كل تنبؤاتي المخزنة ! وكم سأكون مسرورًا في الرجوع عنها ! وأرى في نفس الوقت أن عملنا هين. لنضاعف مجهودنا ، وأنا أشعر في نفسي بشيء من مرونة الشباب وحدته. وأريد أن أبدأ شيئًا من جديد. ولا بد أن يكون المسيو (هيجو) ومدام (ساند) قد أقمنا الدنيا بأن العبقرية لا تعرف الشيخوخة. ويجب أن يرغم تين وأبوت وفلوبير الناقد على التسليم بأن أحسن ما كتبوا حتى الآن لم يكن سوى مجرد محاولات. ويجب أن يكتشف كلود برنارد وبلبياني بعد أسرارًا جديدة عن الحياة ، وأنت نفسك يجب أن تبده الناس بتركيب جديد. وعليك أن تجدد الهجوم على الجوهر الفرد لترى هل هو غير قابل للعدم كما يقولون يجب على كل منا أن يفوق نفسه حتى يقال عنا إن الفرنسيين لا يزالون أبناء آبائهم. ومنذ ثمانين سنة خلال حكم الإرهاب ، كتب كوندورسيه كتابه مختصر تقدم العقل البشري وهو في مخبأه في شارع سرفاندوني ينتظر الموت.

مقدمة المؤلف

إن المحاورات التي تكون الجزء الأهم من هذا الكتاب⁽¹⁾ كتبت في فرساي أثناء شهر مايو سنة ١٨٧١ ، وكنت برحت باريس آخر أبريل وقد جرحت قلبي الضلالات التي شاهدها هنالك واقتنعت بأنه ليس في مستطاعي أن أقوم بأية خدمة للعقل. ولما كنت محروماً من كتيبي مشرداً عن مجال عملي ، قضيت ساعات هذا الفراغ الذي أكرهته عليه في الإثناء إلى نفسي وتدييح موجز لاعتقاداتي الفلسفية ، وبدا لي أن كتابتها على شكل محاورات أوفى بالغرض خلوها من الجزم ، ولأنها تسمح للإنسان بأن يتناول الوجوه المختلفة للمسألة دون أن تضطره إلى الانتهاء إلى نتيجة ، وأنا الآن أقل مما كنت في كل أدوار حياتي شعوراً بالجرأة على الكلام بلهجة الواثق في هذه المسائل ،

والقطع الثلاث التي أقدمها هنا للجمهور غايتها تصوير سلسلة من الأفكار قد تطورت تطوراً منطقياً دون أن ترمي إلى أن تقرر في الذهن رأياً خاصاً ولا أن تبشر بمعتقد معين ، والمسائل التي تناولتها هي من تلك المسائل التي لا يفتأ الإنسان يفكر فيها حتى وهو يعرف حق المعرفة بأنها لا تحل أبداً. والغرض الذي قصدت إليه هو حفز القارئ على التفكير وإثارة الحاسة الفلسفية فيه في بعض الأوقات بمبالغات خاصة. ولا يتطلب مجد الإنسان أن يجاب على هذه المسائل إجابة قاطعة ، وإنما يستلزم أن لا يكون غير مكترث بها. ولم يمنح أحد القدرة على سبر أعماق الهاوية ، ولكن العقل الذي لا يهفو به الإغراء إلى أن يلقي ببصره من الحين إلى الحين صوب أعماقها ، عقل قريب الغور ضحساح.

(1) الكتاب الأصلي يشمل هذه المحاورات وشذرات أخرى في الفلسفة وقد اختصرت على ترجمة المحاورات (العرب).

وإني قبل أن أوّمل أن تفهم هذه الملاحظات على وجهها لأعلم علماً ليس بالظن ، سوء التأويل الذي يستهدف له الإنسان وعندما يتناول المسائل الفلسفية والدينية. وإني مستسلم مقدماً إلى أن الناس ستنسب إلي مباشرة الآراء التي يصرح بها المتحاورون حتى عندما يناقض بعض هذه الآراء البعض الآخر. وإنما أكتب للأذكياء والمستتيرين. وهؤلاء سيسلمون التسليم كله بأنني لا صلة لي بأشخاصي. وأنه لا يجب أن تلقي علي مسؤولية الآراء التي يبسطونها ، وكل واحد من هؤلاء الأشخاص يمثل في درجات متفاوتة من التأكيد والاحتمال والتوهم أوجه الفكر الحر المتتالية. وليس أحد منهم اسماً مستعاراً قد اخترته ليعبر عن عواطفني ، جرياً على الطريقة التي يسير عليها كتاب المحاورات.

ولسبب أقوى أعارض ضد التأويل الذي يريد أن يرى تحت هذه الأسماء الموضوعة فلاسفة أو علماء من المعاصرين ، والمتحاورون في هذه المحاورات هم محض تجريدات. وهم يمثلون مواقف فكرية موجودة أو ممكنة لأشخاص حقيقيين وليست هذه مثل الأحداث التي أولع القدماء بتصور وقوعها بين أشخاص من الموتى أو من الأحياء ، وإنما هي محاورات هادئة اعتادت أن تتجه إليها أفكاري عندما كنت أرخي لها العنان لتسرح طليقة حرة. ولقد انقضى عصر المذاهب المطلقة فهل يقال إذن أن الإنسان قد كف عن البحث وراء نتيجة منطقية في حلقة حوادث الكون ؟ لا. وإنما قديماً كان لكل إنسان مذهبه الفلسفي. كان من أجل هذا المذهب يحى ويموت. أما الآن فنحن ننتقل على التوالي بكل المذاهب. بل نفعل ما هو خير من ذلك ، إذ نستوعبها جميعاً مرة واحدة.

وعندما أعدت القراءة بعد انقضاء خمس سنوات في هذه التأثيرات التي قامت بنفسي في أوقات محزنة ، وجدتها حزينة مربة. وتريثت أول الأمر في طبعها. ولقد عانيت من عصر الشدة الذي مر بنا كابوساً. وكان على الإنسان إذا أراد أن يعبد الله في ذاك الوقت أن يرسل النظر إلى أقصى الأبعاد أو أن يصعده كل مصعد. وكان الله الصالح هو الإله المغلوب على أمره. وعبثاً استغاث به الناس. كنا لا نرى مكانه سوى (إله

الجيش) الذي لا يلين ولا يتأثر إلا برقة آداب فرسان الألمان ، ولا يهزه سوى تفوق القنابل البروسية غير المنكور. وكنت قد فقدت رؤية الإله الأرق الذي التقيت به منذ خمس عشرة سنة في طريقي إلى الجليل ، وتحديث معه أثناء الطريق أحاديث عذبة مروحة⁽¹⁾. ولقد قالت لي سيدة ناهية كنت أعرقها الأصول (لا تقدم هذه الأوراق للطبع فهي ترمي القلوب بحاصب من الثلج).

وقد زاد في مخاوفي الموقف السياسي الذي جرت إليه الحوادث فرنسا. لأنه لأجل أن تفكر حرًا يجب أن تكون متأكدًا كل التأكد من أن ما تقدمه للطبع لا يجر إلى سابقة. وفي الحكومة التي يهيمن على شئونها ملك في يده أزمة القوة المسلحة يكون للإنسان ضمانه أوفي ، إذ يعرف الإنسان أن المجتمع في صيانة من أخطاء نفسه ، أما عندما يكون المجتمع غير معتمد إلا على نفسه فإننا يملكننا الخوف إذ نخشى أن يهز التنفس القوي البنيان المتداعي الذي يحمي به الناس. والمجتمع المتمركزة قوة دفاعه في نفسه ، عليه احتياطات لبراعيتها أكثر من المجتمع المسلح من الخارج ، ومن ثم كانت الجمهوريات - ولو أنها في الغالب أكثر ملاءمة لحرية الفكر من الحكومات الملكية - مضرة بحرية الفكر من طريق غير مباشر ، لشدة الحيلة التي يلجأ إليها الفيلسوف خشية أن يسيء ذو العقول الضيقة فهم مقاصده.

وبعد أن رأت في الأمر واستنصحت ذوي الرأي وحذفت بعض الأفكار الشاذة ، عقدت العزم على أن أقدم للقراء الألباء هذه الصحف المكتوبة لهم. أما الذين لم يتعودوا معالجة مثل هذه الأفكار فلا بأس عليهم من مثل هذه السباحات وسيرورها خلواً من المعنى. أما هؤلاء الذين تعودوا البحوث الفلسفية فأفهم سرعان ما يعرفون أن غرضي الوحيد كان إثارة التفكير في هذه المسائل التي لا يمكن أن نمر بها سكوتًا دون أن نسيء إلى الحق ، وحرصني على أن أكون واضحًا ، وأن أثبت في أفكاري قوة وأزديدها حدة كان يجعلني في بعض الأوقات أُلجأ إلى طريقة مشابهة للطريقة التي اتبعها (جان بول رختن) في القطعة المشهورة ، حيث أراد أن يثير في النفس استفظاع

(1) ألم تنقد قلوبنا داخلنا عندما كان يجاذبنا الحديث.

الإلحاد فجعل المسيح يبشر به. والوسيلة الصادقة الفعل في إظهار أهمية فكرة هي أن نلغي هذه الفكرة ونرى ماذا تصير إليه الدنيا بدونها. وآمل أن أطبق يوماً باستفاضة وتوسع هذه الطريقة في الشرح الفلسفي في كتاب اسميه (فروض) ، أرسم فيه سبعة أو ثمانية مذاهب للدنيا ينقص كل منها عامل رئيسي. وبهذه الوسيلة يصير الدور الذي يلعبه هذا العامل في نظام الأشياء واضحاً جلياً بحيث تدركه أضعف البصائر. والأكثرية الكبرى من الناس ينقسمون تلقاء هذه المسائل إلى قسمين. ويظهر لي أن الحق على مسافة متساوية من كليهما ، ويقول الأرثوذكس من كل الطوائف (إن ما تبحث عنه موجود منذ زمان طويل) ، أما العالم الإثباتي (وهو وحده موضع الخطر) والحاكم السياسي والملحد فيقولون (إن ما تبحث عنه لا يمكن وجوده) حقيقة أنه لا يمكن أن يعرف الإنسان صيغة اللاهوائي الحي. ولكنه أيضاً لا يستطيع إنسان أن يقنع الإنسانية بأنه لا فائدة من التزوع إلى معرفة الكل التي هي جزء منه ، والذي يسوقها على الرغم منها. ونحن نعرف غزارة تلك الصور البديعة التي حاول فيها رافائيل على قباب لوجيا ، ولكن من الذي لا يشوقه وجودها ؟ والفلسفة تابعة لليوم والساعة ، فقد تكون محاولة حقاء تافهة سخيفة ، وقد تكون الشيء الجدي الوحيد. ومن خطل الرأي أن يكب عليها الإنسان كل الإكباب ، إذ يستفرغ جهده وراء شيء لا يني ينصل منه ، كذلك لا ينبغي للإنسان أن يعرض عنها إذ يدل بذلك على عامية العاطفة وقلة سماحة العقل. وللكون غاية مثالية وهو يخدم غرضاً مقدساً ، وليس الكون محض تفاعل بغير جدوى خاتمة النهائية لا شيء ، وإن غاية الإنسانية هي أن يسود العقل ، والعمل على نصرته هو واجب الإنسانية وعبثاً تحاول ردها عن هذه المقاصد السامية. وعندما تخرج الإنسانية من حظيرة الإدراك المادي الضيق ستغتني فرصة هذه الحرية لتركب رأسها وتثبت بذلك أن اللذة الوضيعة لا تشفي عيها.

ومن ثم كان كل تفكير ينقل الإنسان خارج دائرة الأثرة المحصورة ، مفيداً وصالحاً للعقل ، مهما كانت الوجهة التي ينتحيها هذا التفكير. وإن تجديف ذوي القول

الكبيرة لأحب إلى الله من توسلات العامي الجلف المغرضة. لأن التجديف وإن كان يدل على نظر إلى الأشياء ناقص ، هو من بعض الوجوه معارضة عادلة. في حين أن الأنانية ليس فيها مثقال ذرة من الحق. وهناك ملاحظة واحدة هامة ويجب أن أصر عليها. وهي أن هذه التفكيرات ليس لها تطبيق عملي ، وهي في كل الأحوال مثل الشك النظري عند (ديكارت) تفترض وجود قوانين سابقة يأخذ بها الناس أنفسهم ، وخير ضمين لها الطبيعة الخيرة. وإن حلاوة الشمائل وحسن النية للجميع واحترام الكل وحب الناس والحذب عليهم والعطف العام الشامل والتودد لكل المخلوقات ، هي القانون الأكيد الراسخ الذي لا يخدع. فكيف تأتلف مثل هذه المشاعر مع سيادة الطبيعة الشديدة الوطأة ، والاعتقاد بسلطان العقل المطلق ؟ لست أدري ، ولكن هذا أمر قليل الأهمية ، والخير لا يقوم على نظرية ، ونحن نستطيع أن نحب الناس مع استمساكنا بفلسفة أرسطراطية. وقد لا نضمر لهم الحب ونحن نباهي بمبادئ الديمقراطية. وإذا تعمقنا في النظر وجدنا أنه ليست المساواة هي الخالقة لحلاوة الشمائل وعذوبة الأخلاق. بل إن المساواة الحاسدة - على الضد من ذلك - هي التي توجد الزهد والغلظة. وإن أحسن قاعدة للإصلاح هي التسليم بنظام مشمول بالعبودية لكل شيء فيه مكانه وطبقته ونفعه وضرره معاً. وليست الناس متساوية. وليست الشعوب متساوية. فالزنجي مثلاً خلق ليخدم الأشياء العظيمة التي يريدونها الأبيض ويتصورها ، ولا يتبع ذلك أن العبودية المرزولة في أمريكا كانت حقاً. فليست الناس كلها لها حقوق فحسب. بل إن الكائنات قاطبة لها حقوق. وأحط طبقات الإنسان أرقى من الحيوان بكثير. وعلينا واجبات حيال الحيوان. وليس يكفي أن لا نسيء إلى أي كائن بل يجب أن نعمل خيرهم ، وأن ندللهم ونواسيهم ونهون عليهم جفوة الطبيعة التي لا مناص منها. ومادامنا واثقين من هذه المبادئ فلنستمرسل في دعة وترفق مع أحلامنا الشريرة. ولنقدمها للطبع مادام من أسلم نفسه للجمهور مدينًا له بكل جوانب فكره. وإذا أحزنت هذه الأفكار أحدًا فليس علينا سوى أن نقول له قاله الخوري الصالح لسامعيه لما أسال عبراتهم وهو يعظهم عن (الهوى) : يا

(أولادي) لا تفرطوا في البكاء إلى هذا الحد. لقد كان ذلك منذ زمن بعيد. (وربما لم يكن صحيحًا).

والفكاهة الطلية تصلح كل فلسفة. ولست أعرف فلسفة فرحة ، ولكن الطبيعة أبدًا في ريعان الشباب ولا تفتقر عن الابتسام إلينا. ولا تضيق بما المذاهب بل هي تخرج من أشد المآزق حروجة ، وعند أول وهلة ترى أن الإنسانية في عصرنا قد انسأقت في طريق لا مخرج منه. فإن المعتقدات القديمة التي لابس الإنسان في ظلها الفضائل قد تصدعت جوانبها ، ولم يحل محلها شيء ، وبكفينا نحن ذوي العقول المثقفة ما توجده المثالية مكان هذه المعتقدات. لأننا لا نزال نعمل تحت تأثير العادات القديمة. ونحن نشبه الحيوانات التي ينتزع منها علماء وظائف الأعضاء الذهن ، وتبقى برغم ذلك تؤدي وظائف خاصة حيوية بمجرد قوة العادة. ولكن هذه الحركات الغريزية يعتربها الوهن على مر الزمن. وسيرى الكثيرون إن عملنا الخير لنرضي به الله - إذا كان موجودًا - صيغة خالية من المعنى. ونحن نعيش على خيال الخيال فعلى ماذا يعيش بعدنا الناس ؛ شيء وحيد لا يسترب إليه الشك وهو أن الإنسانية تستمد من القلب كل ما يعوزها لصياغة الأحلام ونسج الأوهام ، لتقوم بواجبها وتتم ما قسم لها. ولم يخذلها ذلك في الماضي. وهي لا تفشل فيه في المستقبل.

وأخشى في بعض الأوقات أن يلومني الناس لأني قد استسلمت للهو الفراغ الأثيم لاسترسالتي مع أوهام لا ضرر منها ، على حين كانت بلادي تعاني أشد محنة قاستها. وأجواب على ذلك بما أجبت به من قبل غير مرة. وهو أنني كنت على الدوام طوع أمر أمي: ففي سنة ١٨٦٩ لما دعاني عدد كثير من النأخين لأرشح نفسي لعضوية مجلس النواب ، قمت تلبية لهذه الدعوة بتضحيات شخصية كثيرة ، وكان الشيء الوحيد الذي لم أستطع أن أقهر نفسي عليه هو أن أقول كلمة أكثر أو أقل مما أعتقد أنه لائق بأن يقال. ومنذ ذلك الوقت كررت أنني لا يسعني إلا التزول على إرادة مواطني في كل المهمات التي يريدون أنأطتها بي. وكل شفاعة في مثل هذه الحالات أعتبرها في غير محلها ، والمسئوليات السياسية في مثل هذه الأوقات المضطربة لا يجب

أن يسعى وراءها ، ولا أن ترفض. فالذين يجرون وراءها همقى خفاف الأحلام ،
والذين يرفضونها مؤثرين الراحة والابتعاد عن أخطارها يجب أن نعتبرهم أنانيين ، وأنا
هنا أرفع الصوت بأنه لو كانت بلادي قد وكلت إلي واجباً من الواجبات لكنت
قمت به بكل شجاعة ، ولكنك استنفدت فيه كل ما أوتيت من همة وقدرة على
العمل.

المحاورة الأولى مؤكدات

المحاورة الأولى

مؤكدات

فيلايت - اتيفرون - ايدوكس

اتيفرون وايدوكس وفيلايت ثلاثة فلاسفة من المدرسة التي مبادئها الأساسية عبادة المثل الأعلى ، وإنكار ما فوق الطبيعة ، والتزام الاستخبار التجريبي للواقع. وقد برحوا باريس في غرة شهر مايو سنة ١٨٧٠ ، وجعلوا يتشمون في ناحية منعزلة من حديقة فرساي وقد بهمظهم الحزن لما حل بديارهم من حيف الحوادث وتحامل النكبات. وكان ايدوكس يحمل معه نسخة من كتاب (محادثات فيما بعد الطبيعة) للمبرانش. ثم جلسوا وشرع ايدوكس يقرأ في المقالة الثالثة عشر:

(ما أجمل وأجل فكرة العناية الألهية التي أخذتها عنك يا تيودور ! وما أخصبا وأكثر نورها ! وما أصلحها لكم أفواه الفئة السادرة وحزب المنابذين الدين ! ولست أعرف مبدأ ما يتضمن نتائج أجدى صفقة على الدين والأخلاق منها. أي ضوء تسكب وأي مشكلات تحسم !! وليس ثمة من مظهر من المظاهر التي يناقض بعضها بعضاً في نظام الطبيعة وتدبير العناية يدل على أن هناك تناقضاً في السبب الذي أنتجه. بل هي على النقيض براهين كثيرة جلية على أحكام تصرفه ، والشروع التي تحيق بنا وكل ما يعترض سبيلنا من أسباب التخبط والتشويش يتفق اتفاقاً تاماً مع حكمة المهيمن وصلاحه وعدالته ، وإن صنع الله ليتم بطرق تحمل طابع صفاته. وإني لمكبر لسير العناية التي تحوطنا ذلك ، السير المبدع الفائق).

(تيودور - إني أتلح من كلامك إنك يا ارست قد أحسنت الإصغاء إلى الفكرة التي شرحتها لك وتقبلتها ، إذ لا تزال متأثراً بها إلى الآن. ولكن هل وسعتها فهماً وأحطت بدقائقها خبراً ؟ لا يزال يخامرني في ذلك الشك. ومن الصعب عليّ الاعتقاد بأن وقتاً قصيراً كهذا كافياً لك لتكون قد تعمقت في درسها وقهمتها على الوجه

الصحيح. ورجائي أن تبسط لنا بعض تفكيراتك لأتخلص من الشكوك وأشعر بالاقتناع. وأنه كلما كانت الفكرة أجزل نفعًا وأوفر ثمرة ، تفاقم الخطر الناجم من عدم فهمها فهمًا واضحًا تامًا).

(ارستس - أوافلك يا تيودور على ذلك. ولكن ما شرحته لنا واضح المعالم والنهج الذي جريت عليه في الإبانة عن العناية يتكافأ كل التكافئ مع فكرة الوجود الذي لاتخذ عظمته ، ومع كل ما تلحظه حولنا من الأحداث ، حتى إني لأشعر تأكدي من صدقها.

ايدوكس

يقنص تلك الفلسفة شيء قليل جدًا في بعض الأوقات ليحملنا على قبولها قبولًا كاملاً. وإن فكرة ملبرانش القائلة (بأن الله لا يعمل بمشيئات خاصة) يمكن قبولها بارتياح واعتبارها محصولًا نهائيًا لفكرتنا عن العدالة الإلهية).

فيلايت

من المؤكد أن معرفة ملبرانش للعالم لم تكن تامة إذا قيست إلى ما أمكننا الوصول إليه. ولكنه تمكن مع ذلك من أن يخرج منها بنتائج حكيمة.

اتيفرون

إذا أمسكت عن الكلام في طائفة متناقضاته التي أعفیه من اللوم فيها لتقدير أحوال عصره وفقدان ذلك العصر روح الاعتدال ، ولعلمي بما سببه له مركزه الديني من الارتباك ، فأني لا يمكنني الموافقة بلا معارضة على أفكار عن العالم كافة لم تنضجها الروية. وإن كل ما يعلمه الإنسان إنما هو نتيجة تجارب تمت قبل يومه وخارج دائرته ، ولكنها انتهت إليه بالسماع أو بالمطالعة: وعندما نتناول تلك الحقائق بالاستقراء والتعميم نحصل بقدر ما على أفكار صحيحة خاصة بأجزاء من الكون. أقول بقدر ما ، لأنه من أجل أن نؤكد أي شيء عن أي جزء من الكون بصورة مطلقة لا سبيل للشك فيها ، يلزم أن نكون قد ألمنا بالعدد اللانهائي من الحقائق التي يتكون منها هذا الشيء. وهذا عمل من وراء طوق العقل البشري ، وتشبه معرفتنا من هذه

الوجهة خريطة تخطيطية مفصلة مرسومة بمقدار من الدقة ، إن قليلاً وإن كثيراً ، وإن أحسن الخرائط اتقاناً وإبداعاً لبعيدة عن أن تكون مطابقة لنفس الصقع ، ولكنها مع ذلك تعطينا فكرة عنه. بل إن أقل الخرائط دقة وعناية ، ليست عديمة الفائدة.

وكلما اتسعت معارفنا وتراث حدودها فقدت مقداراً من الثبوت والتأكيد يوازي هذا التمرد والاتساع ، فماذا يكون إذن إذا زعمت نظريتنا إنها تشمل الدنيا برمتها ؟ يذكرني موقفنا في تلك الحالة بالتأثير الذي قام بنفسه إحدى الليالي في إيالة (بسكا⁽¹⁾) ، وكان هناك مصباح ينير الرمل والحصاء إلى مسافة خطوات قليلة ، ووراء هذه الحلقة الصغيرة من النور غياهب الظلماء متراكبة ولو حاولت أن أضمن وجود سهل أو جبل أو نهر أو صخرة على مسيرة كيلو متر من المكان ، لكان ضمامي هذا دعوى لا يقرها العقل. وإنما لننحو هذا النحو في تفكيرنا إذا حاولنا أن نحكم على العالم كافة من البقعة التي نقيم فيها.

فيلايت

إذا ربأنا بأنفسنا عن أن نكون في مرتبة الحيوانات التي لا تشغل بالها إلا بالغرض الذاتي من حواسها وجشع شهواتها ، فإننا مرغمون على أن نكون مما نراه فكرة مما لا نراه.

اتيفرون

ليكن ذلك كذلك ، ولكن ينبغي لنا أن لا ننسى أن آراء كهذه لا تزيد على ما سماه القدماء (عقائد الفلاسفة) وإن شكا على لايني يرفرف فوق هذا الضرب من المباحث الفكرية ولا يبرح الشك يقفوا أثر كل مسألة متحامية الحل. أليس تركيبنا النفسي في صميمه وهو العين التي نبصر بها الواقع - عرضة أن يغش ويخدع ؟ ألسنا ألاجيب لوهم لا مفر منه ؛ من المحال أن نجيب على سؤال كهذا دون التورط في القياس الفاسد.

(1) في الجزء الأوسط من شرقي بلاد البحر.

فيلاليت

ليس من عادي أن أقف مدفعاً مصدوداً إزاء هذا الشك الذي أفضي بكثري من الفلاسفة إلى طريق يضل سالكه. وبما أننا عندما نستعمل آلة العقل استعمالاً علمياً ، ونعتبرها مقياساً صادقاً ثابتاً للواقع ، لا تقع في الخطأ، فإننا مضطرون إلى أن نستنبط من ذلك أن هذا العقل مقياس صالح يصح الاستناد عليه والأخذ به ، وتثبت صحة الميزان إذا غيرنا المقادير الموزونة وحصلنا على نتائج ثابتة.

ايدوكس

أضف إلى ذلك أن الإنسانية ليست وحدة كما تصورها (ديكارت) وكما تصورها (كانت) نفسه. وإنما نعرف إنسانيات عدة. أشهرها نوعان رئيسيان. ذلك النوع الذي تناسل في آسيا الغربية والنوع الذي انتشر وتزايد في آسيا الشرقية. وأقصد الصين. وهذه الإنسانيات المتنوعة - ولو أنها غير متساوية في الانتشار - قد صيغت نفسها على مثال واحد تقريباً. ولسنا نعدو الحق إذا قلنا إن الإنسانيات الأخرى الشائعة في فسيح المكان لا تختلف عنا اختلافاً جوهرياً من ناحية تصورات العقل والأخلاق الأساسية. ولقد يكون الاختلاف بيننا وبينهم أقل مما يختلفه رجل صيني أو أندماني.

فيلاليت

هذه أوقات محزنة. وها نحن نسائل أنفسنا عشرين مرة في اليوم هل للحياة قيمة وقد هوى كل ما كنا نحب من شاهده. سعيد الرجل الذي لا يزال يعتقد في مدينة الله الخالدة ، والذي يمكنه أن يتلقى الموت ببشاشة وسلام كما تلقاه القديس (اجستن) أثناء حصار (هيون). أتريد أن نستعرض أفكارنا العامة عن الله والكون ؟ الرأي عندنا أن نعاود التفكير في هذه المسائل كل عشر سنوات ، لأجل أن نعمل لأنفسنا ما يشبه الميزانية للمقادير التي استبدلت منذ التصفية الأخيرة.

ايدوكس واتيافرون

بكل ارتياح وقبول

فيلاليت

أما عن نفسي فمن عاداتي تقسيم أفكارى في هذا الموضوع إلى ثلاثة أقسام. القسم الأول ، وهو لسوء الحظ أضيقها حدودًا ، هو قسم المؤكدات. والقسم الثاني قسم المظنونات. والقسم الثالث قسم المتخيلات. وسنمك يا اتيفرون عن الإشارة إلى الأخير إذا شئت ولو أنه ربما كان الأعز علينا جميعًا.

اتيفرون

الأحلام صالحة ومفيدة على شريطة أن نأخذها على أنها أحلام. ألا تتذكر نظرية (هجل) العظيمة (إنه من اللازم أن نفهم الغير مفهوم كما هو).

ايدوكس

يمكن فيلاليت أن يتقدم إلينا الآن بشرح المؤكدات من كاره عن العالم بكليته.

فيلاليت

عندما أفكر في العالم بكليته أرى شيئين مؤكدين إلى حدٍ إنى إذا لم أوفق الكشف عنهما لكل من ألم بمبادئ العلم فسبب ذلك قصور منى في التعبير عنهما. الأول هو أننا عندما نتناول بالتحليل كل ما يحدث فى الكون داخل حدود المشاهدة لا نرى أثر الكائنات معروفة أسمى من الإنسان تعمل بمشيئات خفية كما يزعم ملبراناش.

(ايدوكس)

وضح لنا طريقة فهمك لهذه الكلمات

فيلاليت

لو لم يكن الإنسان فى هذا الكوكب السيار الذى نساكنه لكان شكله مغايرًا كل المغايرة لما هو عليه الآن. أو -بلفظ آخر - أن الإنسان يؤثر فى تطور الأشياء باعتباره سببًا من الأسباب ، أما خارج هذا الكوكب فليس للإنسان من تأثير. وذلك لأن كوكبنا لا يؤثر فى العالم تأثيرًا كبيرًا إلا من ناحية الجاذبية والإنسان لم يغير قوة الانجذاب وليس فى وسعه أن يغيرها. ولكن مع ذلك فإنه لما كان أقل عمل ذرى ينعكس أثره فى الكل. ولما كان الإنسان هو السبب العرضى على أقل تقدير لعدد

من الأعمال الذرية لذلك يمكننا أن نقول بأن الإنسان يؤثر في الكل بمقدار يتناسب مع الفرق الدقيق بين الدنيا وهي أهلة بالإنسان وبين ما تكون عليه وهي مهجورة خالية منه. ويمكننا أن نجزم بأنه حتى الحيوانات تؤثر في العالم باعتبارها سبباً. لأن الكوكب الذي لا تسكنه سوى الحيوانات يتخذ سطحه مظهرًا مرده إلى إرادة الحيوانات الحرة ، مخالفًا للشكل الآلي الصرف الذي لا تلمح فيه أثر أي عمل من أعمال الإرادة.

ومن هنا نستخلص أنه إذا كان ثمة مخلوقات تعمل في الكون عمل الإنسان على سطح كوكبه أو بشكل أبلغ في التأثير ، لكننا أدركناها ببعض الطرق ؛ وإذا جيء بمخلوق عاقل من دنيا أخرى إلى دنيانا هذه فإنه يدرك قبل أن يصادف أي إنسان أن هذا الكوكب تسكنه مخلوقات عاقلة حرة مثله ماهرة في ابتكار الوسائل لبلوغ المآرب ، وأن منظر طريق أو رؤية حائط قائم أو مشاهدة صف من الأشجار كافية لتؤكد ذلك تأكيداً لا مساغ للشك فيه. كما روى عن أحد القدماء أنه رسا على جزيرة ورأى بها أشكالاً هندسية مخطوطة على الرمل فاستدل على أنه (لابد من وجود ناس هنا). ولكن منظر العالم لا يكفل لنا الوصول إلى مثل هذا الاستدلال. حقيقة أن كل شيء في الوجود تام النظام والاتزان. ولكن لا يوجد في ثنانيا الحوادث قصد خفي. وكل الكوائن تتبع سنناً عامة ، ولم يثبت مرة واحدة الشذوذ عنها لغرض خاص.

وإن إظهار الحذب على الرجل الفاضل أو العطف على القضية العادلة لإحدى الحالات التي كان يمكن أن يكون من الطبيعي فيها الخروج عن حدود تلك القوانين: ولكن شيئاً مثل هذا لم يعرف.

ومن خصائص الطبيعة عدم الإحساس المطلق وتساميتها فوق منازع الأخلاق أو لا أخلاقيتها العالية ، إذا اجترأت على هذا القول وأن لا أخلاقية التاريخ والظلم الكامن في الجماعات البشرية ليسا أقل من ذلك فتيلًا. ومهما عملنا فإنه سيكون من المستحيل على الدوام أن يكون المجتمع عادلاً. وأنا أعلم أن أغلب الناس يعتقدون

بوجود (آلهة) تحمي حتى البراءة وتنتقم للجريمة وأنها عرضة للاستفزاز والترقيق. وإنما كان ذلك كذلك لأنهم لما كانوا لم يتشبعوا بالروح العلمية ، فليست عندهم القدرة التحليلية ولا قوة الملاحظة الكافية لإدراك أنه لا يحدث في مجرى الحوادث تدخل مخلوقات أسمى ينم على إرادة. ولو وقع مثل هذا التدخل المزعوم لثبت ، ولكنه لم يقم دليل على وجود أثر لقوة عاقلة في سير الحوادث وأحوال الدنيا المتشعبة الكثيرة وإن عالم الملاحظة من السمة وتارامي الأطراف ، بحيث لو كان قوع فيه مثل هذا التدخل لمشاهدة أحد الناس.

ايدوكس

أتكرر تأثير الدعاء والتوسل ؟

فيلاليت

لا أنكر قيمة الدعاء باعتباره ترتيباً صوفياً ، وكل ما يعرب عن إعجاب أو سرور أو حب هو دعاء في هذا المعنى ، ولكن الدعاء المغرض - الذي يتوسل به المخلوق المحدود إلى أن يقيم إرادته محل إرادة الكائن غير المحدود - أقول مثل هذا الدعاء أنكره كل الإنكار وأعتبره خطأ في حق الله صادراً عن نية حسنة بلا ريب. (اوزوريس يرتشي بقطعة صغيرة من الكعك). والناس تحاول أن ترشي الله بالهدايا الصغيرة. وفي عصور الفطرة عندما كان يصيب السرطان أحد الأبطال كانت الناس تظن أن الله يلتقمه. ومن ثم كانوا يقدمون للإله طعاماً جديداً ، راجين بذلك أنه قد يفضله على لحم المريض ويتركه ينجو بنفسه ، والرجل المجرد من الروح العلمية يعتقد أن هناك كائنات تتدخل مباشرة في شئون الدنيا ، ويتوهم أنه بمناجاة هذه الكائنات يستطيع أن يستجلب معونتهم في تحقيق رغباته ولكنه لم يثبت مرة واحدة أن دعاء كهذا أسفر عن مثل هذه النتيجة.

ولقد كان الفلاسفة اليونانيون يعرفون ذلك حق المعرفة. فإن أحد هؤلاء الفلاسفة - وهو دياجوراس من مدينة ميلوس - لما رأى القرابين التي تقدم بها الملاحون في معبد بوسيدون قال: (الناس يحصون الذين نجوا ولكنهم لا يحصون من غرق وقد قدم

قرباناً كغيره). وهذا كلام جيد ، وفي أمثال هذه المسائل لا يحصي الناس إلا من ساعفهم الحظ ، ولكنهم لا ينظرون إلى الذين لم يحققوا هذه الأوهام التي نحاول نسجها حول نفوسنا. وهذا هو تفسير المعجزات كافة ، والدعاء هو في الحقيقة التماس معجزة لأن من يدعو الله إنما يلتمس أن تتغير من أجل مصلحته الخاصة السنن التي تجري عليها الطبيعة. والمريض الذي يدعو للشفاء عندما يكون من المحتم موته وفقاً لنظام الأشياء الطبيعية إنما يرجو معجزة ، وهو يدعو لينقل المرض القاتل المميت عن طبيعته ، والفلاحون الذين يقيمون الحفلات للاستسقاء أو لإيقاف الأمطار يطلبون معجزة أيضاً ، فهم يدعون لسقوط الأمطار في وقت يقتضي نظام الطبيعة عدم سقوطها. وهذا يتطلب انقلاباً كلياً ظاهر القصد في الجو. وأن الأمطار الكثيفة التي تهطل في شهر يونيو متوقفة على الحالة التي طرأت على الثلاجات في القطب الشمالي في شهر مايو. وفي حالة كهذه يقتضي أن يكون الله الذي جرت في علمه الأدعية التي ستوجه إليه قبل شهر من إرسالها ، قد ألقى ياله إلى حركات الثلاجات وعاق تكوينها. أو أن يكون قد منع الثلوج المقبلة نحو الجنوب من أن تؤثر تأثيرها المألوف في تبريد الأبحر وتكثيفها وماذا يكون ذلك إذا لم يكن معجزة ؟

ولأجل تدعيم أساس الاعتقاد بهذه المسألة يلزم أن يكون في مستطاعتنا أن نجرب حالات كان فيها توجيه الدعاء باعثاً على تسيير الحوادث في مجرى مخالف لما كانت تسلكه لو انقطع الدعاء. ولكن برهاناً كهذا لم يحاوله أحد بعد ولن يحاول. وما زالت الناس تدعو منذ بدء الدنيا. ومع ذلك لم يوفقوا في إثبات أن دعوة من الدعوات أو نذراً من النذور جاء بالغاية المبتغاة. ولقد عثر المنقبون حديثاً بثلاثة آلاف مخطوطة بونية كلها مشابه بعضها البعض. وكل واحدة منها يؤكد لنا فيها أحد أتقياء القرطاجنيين أن تأنيث وبعل هامون قد سمعا دعاءه وأنه رفع هذه المخطوطة شاهداً ناطقاً. ولا بأس في ذلك إلى هنا. ولكن تأنيث وبعل هامون آلهة زائفة. وما من أحد يقول الآن أنها كانت تستطيع إغداق النعم. فالثلاثة آلاف مخطوطة إذن شاهدة بالتورط في الخطأ وليست الأبنية التي شيدت للنذور والأدعية بدليل على صدق

النذور واستجابة الأدعية. ولو أجمعت جمهرة الناس على الاعتقاد بأنهم جربوا تأثير الدعاء لما أثبت ذلك شيئاً. ولقد كان هؤلاء التمراطاجنيون يودون أن يحملونا على الاعتقاد بأنهم جربوا نفس هذا التأثير. وكانوا واهمين في ذلك ؛ لأن آلهتهم كانت بلا حول ولا قوة كما يعلم الآن جميع الناس.

ومن اليسير أن نفصل في هذه المسألة بالعودة إلى الإحصائيات ففي أوقات الجذب تقيم نحو ثلاثين أو أربعين أبريشية في مقاطعة واحدة الحفلات رجاء الاستسقاء. وتمسك عن ذلك نحو عشرين أو ثلاثين أبريشية. ويحفظ بيانات عن ذلك حفظاً جيداً وبمشاهدة حالات كثيرة يكون من السهل التأكيد إن كان لهذه الحفلات أي تأثير وإن كان الإبريشيات التي قامت بها كان نصيبها من الرعاية أوفر من نصيب غيرها. ومما إذا كانت كمية الأمطار التي غمرتها مناسبة لحماستها الدينية.

ويمكن تكرير العملية بأساليب عدة مختلفة. يمكن مثلاً أن نهيئ حجرتين بهما أطفال مصابة بمرض واحد مع اصطناع الحيلة في عزلهم حتى لا يتسرب الغش إلى النظام. ونسمح للمتدينين أن يضعوا في إحدى الحجرتين بعض التماثيل ، التي يقال أنها تملك القدرة على إتيان الخوارق. وتترك الحجرة الأخرى عاطلة من ذلك وننظر فيما يسفر عن هذا الترتيب من فرق محس قابل للتقدير. ولكن أحداً لم يحاول هذه التجربة ويوافقني عقلاء الناس بأجمعهم ، على أنه إذا أجريت هذه التجربة فإنه من السهل اليسير التكهّن بنتيجتها.

ويلاحظ في حوادث التاريخ عدم وجود أثر لتدخل قوة فوق الطبيعة. وإن أنقضى الأمام وأشدها تعلقاً بأهداب الدين يهزمها في الغالب أمم أقل منها تقوى واستمسكاً بعروة الدين دون أن يكون في وسعنا أن نقيم الحجة على أن عناية أسمى قد صادفت فئة غير الفئة الأقوى. وأن ما يدعونه (إليه الجيوش) يأخذ على الدوام جانب الأمة التي تملك أحسن مدفعية وتستعمل أمهر قادة.

والطبيعة في تصرفاتها وتدابيرها تظهر عدم الاكتراث المطلق للخير والشر والشمس تشرق على السواء للخير والشرير.

ولا يوجد ثمة حقيقة واحدة تكررنا على الاعتقاد بوجود كائنات محدودة خارجة عن الإنسانية قادرة على العمل فوق كوكبنا ، ولست أرمي من وراء ذلك إلى أن أنكر إنكاراً مطلقاً وجود كائنات عاقلة عاملة خارج نطاق الإنسانية ، وإنما جل ما أقصده هو أن كائنات كهذه لا تؤثر بعملها في كوكبنا ولا في حركة النجوم. لأنه لو كان هناك تأثير خاص معين كهذا لكننا أدركناه وانتهينا إلى حقيقته. ولنفرض أن طائفة من النحل أنشأت جمهوريتها في مكان مهجور لا يطره أحد من البشر إلا مرتين أو ثلاث مرات في غضون قرن ولنفرض أن هذا النمل قادر على معرفة الطبيعة والوقوف على نوااميسها ولكنه لا يستطيع أن يفسر مسألة هذا الكائن الضخم الذي يهدده بالسحق ، ففلسفة النمل الطبيعية في هذه الحال ستكون مماثلة لفلسفتنا سيضطر إلى تقرير أن السنن قابلة لأن تنقض نقضاً مبهماً غريباً لمدة دقائق كل أربعين أو خمسين سنة عند مرور كائن غريب هائل وقوة غامضة تعترض طريقة وتقلب كل شيء ، ولو كان في النمل فلاسفة لما خلطت قط بين مرور هذا الكائن وبين هبوب عاصفة أو اندفاق ماء وغير ذلك من المظاهر الآلية المترهنة عن القصد والتعمد ؛ وسيكون الإنسان الذي يتصوره تصوراً مشوباً بالغموض واللبس - في نظره شديد الشبه بالله عند القدماء فهو كائن أقوى من الإنسان يتدخل من الحين إلى الحين في شئون الأرض وأحوال الدنيا ، ولم يثبت يوماً أن كائنًا كهذا موجود خارج عالم الإنسانية. ولم تر الإنسانية مظهرًا يشابه المظهر الذي توهمنا أن النمل شاهده في الافتراض الذي فرضناه ، ولقد كانت الانفجارات البركانية والزلازل والأوبئة تعتبر قديمًا حوادث من هذا القبيل ، وأما نذير غضب الله ، ولكن في هذه الأيام لا يعتقد بذلك رجل حسن التفكير ، وهذه الحوادث تعتبر الآن طبيعية ، وليست هناك أكاديمية من أكاديميات العلوم تقول إن من أسباب ثورة بركان جوريلو أو هيكلا الجرائم التي يقتربها المكسيكيون أو أهل أيسلندة ، وهناك بلاد أقل تمسكًا بالأخلاق من أهل أيسلندة ولا تعرف فيها الزلازل.

ايدوكس

أهذا هو محصول فقهك ؟ أنه فقه معرق في النفي إلى حد غريب

فيلاليت

تمهل قليلاً ! لقد بينت لك أي أقبل فرضين في الفقه وأعتبرهما مؤكدين. فكما أي اعتقد اعتقاداً جازماً لا يتسرب إليه الشك أنه لا نزوة عارضة ولا إرادة خفية تتدخل في نسيج الحوادث التي يتكون منها العالم ، فكذلك أعتقد أنه من الواضح الوضوح كله أن للدنيا غاية تسعى إليها. وأنها مثابرة باستمرار على القيام بعمل مبهم خفي. وهنالك شيء ينمو ويتطور بضرورة داخلية وبغريزة غير تنبئية وبطريقة مشابهة لحركة النبات إلى الماء والهواء وللمجهود المندفع بلا روية الذي يبذله الجنين ليترك الرحم. أو لتلك الضرورة الداخلية التي تهدي تقلبات الحشرات وترشد نشوءها وتكوينها ، والدنيا عاكفة على عمل شيء من الأشياء كما يقول القديس بولس (الخليقة كلها تنن وتتوجع وهي في رحلة وانتقال). والحافز الأكبر في سير الدنيا وحركتها هو الألم المخلوق غير القانع الذي لا يفتأ يتشوف إلى النماء ولا يقر له من أجل ذلك قرار. والظروف السمحة اللينة تولد الجمود في حين أن الضغط والمقاومة هما بدء الحركة ، والضغط هو الذي يجعل الماء يرتفع ويرسم سيره. وبلوغ الفتاة ينشأ من بيضة نضجت للحياة وتطلعت إليها ، وكل شيء في هذا الوجود من السمك النجمي الخمس الشكل الذي يهضم - ذلك التركيب العضوي المفرد الذي كان وجوده ممكناً بلا نزاع في أول عصور الدنيا - إلى أسمى أنواع الإنسان يتطلع إلى الوجود ويحاول أو يؤكد وجوده ويجرز أكبر قسط منه. وكل شيء ممكن يريد أن يرى تحقيق كيانه. فكل شعور غامض يعاني ويجاهد لينتفي عنه الغموض وليصير أكثر شعوراً وأوضح وأجلى ؛ والعالم في آلام تطوره الذي لا ينقطع يشبه القلب الكبير الفائض بالحلب الواهن الغامض فالجسم الكامل النظام يرمي إلى تحقيق مثال ، وكلما نما يكتسب أجزاءه المختلفة ويخلق لنفسه أعضاء بمجهود لا روية فيه ولا أناة يمكن أن تنتبأ بتأثيراته من قبل ، وكل مثال يستمد من نبعته كل ما يحسه من

ناحية كماله الفردي ، وأي اختراع بشري يصح أن يقارن بالمصاصات التي زود بها نفسه الأخطبوط بفن عميق متغلغل ، وما يصدق قوله عن المثال الحيواني يلزم أن نقول عن الوطن والدين وعن كل حقيقة عضوية ، بل يلزم أن تقول نفس ذلك القول عن الإنسانية والكون بأكمله ، ونحن نحس بأن هناك مجهودًا عظيمًا لتحقيق غاية ومثلًا وبولغ وحدة متزنة أو إيجاد شعور ووعي وأن الشعور الكلي لا يزال غامضًا ملتبسًا إلى حد كبير ، وهو لا يفوق شعور الحمار أو ذوات الأرجل العديدة ولكنه مع ذلك موجود ، والدنيا تتقدم إلى الأمام بغريزة لا تخطئ غرضها ، وإن مادية العلماء الآلية في أواخر القرن الثامن عشر لتظهر لي من أعظم الأغاليط التي ترتكب .

اتيفرون

خذ حذرک لئلا تفضي بك وجهة بحثك هذه المسألة إلى الاقتراب من فلسفة الأسباب النهائية العتيقة. تلك الفلسفة الساذجة في تفسيرها وشرحها.

فيلاليت

لم تخطئ هذه الفلسفة إلا في الصورة ، وما قد ألحقته بنظام الكونية والخلق يلزم أن يدرج الآن في نظام التطور والنشوء البطيء ، والتلمود يقول (لعمل الملاقيط كانت الملاقيط لازمة فخلقها الله). وهذا خطأ لأن الملاقيط صنعت تدريجًا وبآلات تدرجت في التقدم. وعلى هذا الأسلوب تم خلق الإنسان والحيوانات والحياة وأن مظاهر الشعور في حالته الغامضة هي مكان الله المناسب. وأكثر ما يتجلى الله في الحيوان والطفل وفي الرجل من غمار الناس وفي الرجل العبقري الذي هو أيضًا حسب نوعه طفل واحد الناس أيضًا ، وأن الله هو عقل من لا عقل له ، وهو الحرك الخفي الذي يوجد الأشياء ويكونها تبعًا لنواميس الجمال والاتزان ، وهو العدد والوزن والقياس الذي يجعل الدنيا متزنة أبدية.

وأشد ما يزيدني إيمانًا بهذا الرأي هو طائفة الحقائق التي نقف فيها على خداع الطبيعة للأفراد وتغريها بهم لغاية أسمى منهم ، ولنتأمل مثلاً كل ما يتصل بمسألة التناسل ،

وكيف جعلتنا الطبيعة نشعر كل الشعور بالأهمية التي تعلقها على الاحتفاظ بآداب الفرد. فهي تحف هذا الكثر - هذا النبع لكل حياة - بضروب لا تحصى من الاحتياطات وهي لم تكتف بأن تقعد به اللذة فحسب ، بل قد وكلت به ألواناً من الغرائز وصنوفاً من العواطف المتناقضة كالحياء والاحتجاز والشهوانية والاستخزاء والرغبة ، وذلك مثل أمراس السفينة للشد والتوثيق والصد والمنع والإغراء. وهي تتزل أقسى العقوبات وأشدها نكراً بمن أسرف وسدر ، والطبيعة نفسها تشترط أن تكون المرأة عفيفة صائنة وألا يكون الرجل عفيفاً إلى مدى بعيد. ومن ثم فإن طائفة من الأحكام المقررة تنهال على المرأة التي لا تصون عرضها ، في حين أن الرجل غير العفيف لا يلحقه سوى رشاش من السخرية والاستهزاء. وعواطف مثل هذه عندما تكون متوشجة الأعراق شديدة التأبي تكون جزءاً من الطبيعة نفسها. والطبيعة في تدبيراتها ترمي إلى غاية أخلاقية أكثر مما تنظر إلى إشباع أنانية الفرد.

والرغبة هي المحرك الذي أتاحته العناية للعمل. وكل رغبة تنطوي على وهم. ولكن النظام الذي تجري عليه الأمور لا يشعرنا بفراغ الرغبة إلا بعد ارتوائها. (وبوتوس) هو أقدم الآلهة ميلاداً وسيظل كذلك. ومادة التلقيح في النبات تجاهد بلباقة في الولوج إلى البويضة حتى لكأنها تعلم قوانين الفراغ. وكل مطلب من مطالب الرغبة تنكشف لنا تفاهته عند إدراكه. ولم يشذ عن هذه التجربة شيء منذ أول العالم. ولكن برغم ذلك فإن هذا لا يثني هؤلاء الذين يعرفون هذا حق المعرفة عن الجري وراء الرغبة. وسيظل الأكليروس يبشرون بفلسفة الأعزب الذي لا تحدده الأوهام ، وسيظل الناس يعترفون بصدق هذه الفلسفة. ولكنهم سيظلون مع ذلك يعدون وراء الرغبات فأبي تناقض !

إن الطبيعة تريد تكاثر النوع وتلجأ إلى آلاف الحيل لبلوغ هذا الغرض. والجسم من أعمال الكائنات ليس نتيجة التقدير الذي يعود بالفائدة الذاتية. ولقد أركزت الطبيعة في الحيوانات الدينية من عطف الأمومة ما يكفي لحفظ نوعها. وقد منححت الإنسان نصيباً من التزاهة يسمح له بالانتقال إلى حياة أسمى. وأن الفراشة القصيرة

العمر تعيش ثلاث سنوات في دور ما بين النقف والتقرش وتنتهي حياتها في اليوم الذي ينبت فيه جناحها. وهي في خلال هذه الفترة القصيرة تتناسل وتبيض وتموت. وليس ثمة من غريزة بدون غرض. وعندما نرى في الطبيعة البشرية آلاف الحقائق التي لا تفسرها اللذة ولا المصلحة تفسيرًا كافيًا يمكننا أن نستخلص في غير تردد أنها أدوات آلة أعدتها الطبيعة ولو أن غرض هذه الآلة من الصعب اكتشافه. والإنسان يشبه العامل في جوبلتر الذي ينسج بطانة الوشي التي لا يعرف طريقته ولا يرى غايتها. وإنما هو يعمل لقاء فرنكات قليلة يتقاضاها في اليوم. ونحن نعمل لأقل من ذلك. نعمل بوهم العمل الصالح فأى حيوان شريف الإنسان؟ وكيف يحسن حمل نيره! وما أصدق وأعمق صورة الجحش في بلاتين، (اعمل أيها الجحش كما كدحتُ فإنه سينفعل).

ومن الواضح أننا مسخرون لخدمة غرض من الأغراض وأن الطبيعة تستخدمنا وهناك شيء يتم على حساب ما نبذله من مجهود. وأنا ألعيب أنانية أسمى تتبع غرضها بطريقنا. وأن العالم هو هذا الأناني العظيم الذي يجذبنا إلى الشرك بأفطع أنواع الخداع. مرة باللذة التي يطالبنا بعد ذلك بأن ندفعها مقدارًا معادلًا من الألم. ومرة بجنة وهمية لا نرى فيها ظلًا من الحق حالمًا نستقر فيها. وتارة بوهم الفضيلة الذي يحمّلنا على تضحية أوضح مصالحنا لغرض خارج عنا وبعيد عن دائرتنا. والطعم ظاهر ولكننا سنتناوله وسنعمل ذلك على الدوام.

اتيفرون

ليس هذا عجيبًا إلى الحد الذي تتصوره، ولا يمكن وجود الدنيا إلا على الغرار الذي وصفته، ولو كانت الإنسانية من الذكاء والفطنة بحيث يستطيع أفرادها أن يستبينوا كل شيء لكان من المستحيل بقاءها، بل كانت تموت في جرثومتها ومن ثم لا توجد، وإنك في ذلك كأنك تتعجب من عدم وجود فقري بدون قلب.

فيلاليت

ولكن أشد ما يثير دهشتي هو وجود كائن يقتضي تركيبه أن يعيش لغرض خارج عن نفسه وأن يضحي في بعض الأحيان بشخصه في سبيل هذا الغرض ، فوجود هذا الكائن هو مناط دهشتي وموضع تعجبي ، وأن فضيلة الإنسان لأقوى دليل على وجود الله ، والكون في تصرفه بالإنسان يتراءى لنا كطاغية محتمل يتزلنا على إرادته بأساليب مكيفالية ويدير الأمور بحيث لا يفتن إلى تلبساته إلا القليلون ، لأنها لو وقف عليها كل إنسان لاستحال وجود الدنيا والطبيعة تحرص على فضيلة الفرد ، وإذا نظرنا من ناحية المصلحة الشخصية وجدنا أن هذا وهم لأن الفرد لا يستمد نفعاً من فضيلته ، ولكن الطبيعة مفتقرة إلى فضيلة الفرد ، وقد احتالت لذلك بقانون الواجب أعظم إهام وأصدقه بل الإهام الفذ ، وإن أكد فضيلة هي الفضيلة القائمة على الشك النظري ، وليس ثمة في الحياة العملية من إنسان يخاطر بمائة فرنك رجاء أن يكتسب مليوناً باحتمال حياة مقبلة ، ولكن مع ذلك فإن كل إنسان يستسلم للموت أو يعدل سلوكه تبعاً لمثل هذا الاحتمال ، والأصل في ذلك أن هناك ناحية في العقل الإنساني لا تقتصر على الوجه النظري مثل سائر نواحيه بل تأخذ بمخائنا وترغمنا ، وإن الطبيعة لتتعمد خداعنا لأجل غرض سام يسعى إليه الكون وهذا الغرض خارج عنا.

والأكاذيب المباركة التي تلفقها الطبيعة لإدراك غايتها وهي أدب الفرد تدهشنا لو حاولنا أن نحيط بتفاصيلها. وأن اعتقادات الدين الطبيعي - وكلها مشتقة من قانون الواجب - لتشبه شبكة توقعنا في أسرها أو شراب الحب الذي يستغويننا. ولا يجدي هنا النقد ولا الفلسفة النافية. وأنا نعتقد بالله ونؤمن به عندما نكون في أسعد حالة ، والدين للإنسان كغريزة الأمومة للطيور - توضحية بغير بصيرة لغاية مجهولة إرادتها الطبيعة. وهذا شيء سخي في حد ذاته: ولكنه صالح لأن الطبيعة تريده. بل هو أيضاً صادق وأقدس من كل شيء لأجل ذلك. وهناك سياسة مفكرة متجلية في كل مظاهر الشعور الغامض أو الوجود اللاشعوري. وأن غرضاً عظيماً يتم بتفاني الإنسان

وتحريضك الإنسان على ألا يتفانى في هذا الغرض هو مثلما تدعو الطير لترك بناء عشه أو ألا يتعهد صغاره. وفي ذلك مقدار ضئيل من الضرر. والإنسان والطائر يستمسان بأساليهما الأبدية ويحرصان على طرق عملهما لأن الطبيعة تتطلب هذا التشبث. وهناك عناية حكيمة قد احتاطت لتضمن هذا المقدار من الفضيلة اللازم لحفظ العالم.

ايدوكس

لو كان هناك رجال في هذه الدنيا يأخذون بشماهم ما تعطيهم لهم باليمين مثلما يقول القدماء لأربكتهم أراؤك ، ومن ناحية أخرى فإن الماديين سيتهمونك بأنك تبحث عن التجرد من المصلحة حيث لا يوجد ، والرغبة الأنانية في نظرهم كافية في تفسير كل الحقائق التي ترى أنت فيها خطة جيزويتية في الطبيعة لإخضاعنا لإرادتها.

فيلايت

السبب في ذلك هو أن العلماء الذين يتقلدون اسم الماديين بغير حق في الأغلب لم يحللوا طبيعة غرائزنا الأخلاقية والفلسفية والفنية تحليلًا كافيًا ، وإذا فكر الإنسان جيدًا رأى أنه في أكثر الأمور له صالح مباشر في ألا يكون ذا فضيلة. ولكنه مع ذلك مستمسك بالفضيلة في أغلب أوقاته. ولو كان الحق والخير والجمال أشياء لا قيمة لها تركها الناس من زمن بعيد لأنها غير مثمرة. وأن النبوغ الصادق والفضيلة الحقّة والعلم الصحيح تضر بمصالحنا ولا تعيننا على النجاح ، بل هي تعوق النجاح. وفي بعض الأوقات تجر عليه البلايا. ولو لم يكن في الصادق قيمة مجردة لقضى التطلع البشري إلى المعرفة نحبه من زمن ولو لم يكن الصالح مطلب إرادة أكبر من إرادتنا لعلمتنا آلاف التجارب أن لا نغربه ونخدع ، والرجل الفاضل والعالم والفنان العظيم هم أسطع البراهين على وجود الله. ولكن أبسط الحقائق النفسية إذا أحسنا استخبارها أدت إلى نفس النتيجة. ومن الأوهاب التي تتطلبها مصلحة الإنسانية ومصلحة الأمة ، فإن مسألة روح العائلة لها المكان الأول والفضائل العائلية لازمة لبقاء المجتمع سلمًا. وقد احتاطت الطبيعة لذلك بعيوب غريبة في المنطق تخدع أشد

الناس تهذيباً وأكثرهم أنهما كالحسن الحظ. والاكتفاء بالزوجة الواحدة لا دليل عليه في نية الإنسان. ولكنه لازم وجوهري لتكوين الشعوب العظيمة وحفظها. وقد اكتسب من الأراء قوة قانون شبيه بالطبيعي. وعدد كثير من أفاضل المواطنين لا يعيشون إلا ليتعهدوا أولادهم ويربوهم. ولا يكون لأولادهم هؤلاء شغل إذا بلغوا حد الرجولة سوى تعهداً أولادهم أيضاً. والقياس الفاسد واضح ولكنه لا يعوق إنساناً ؛ لأن الطبيعة مفتقرة إلى هذا الاهتمام التزيه وهي تحفظ لنفسها فرصة أنه قد يبرز من أكنان هذا الغموض رجل من الطراز الأول يتصرف برأس المال الذي جمعه له نشاط أجداده ويستثمره في وقت قصير أحسن استثمار لصالح الفن والعلم والسياسة.

ويكن أن نلاحظ ماكيافلية الطبيعة الغريزية علاوة على ذلك في الخداع العظيم الذي ينطوي عليه الصلاح. وأن صلاح طبيعة الكلب لا يفتر ولو أنه يسبب له الخيبة وسوء المعاملة. ومعاملة الإنسان المهينة لا تسؤه لأنه يحب الإنسان. وهو يشعر بتفوق في ذلك. وهو يزهو ويفخر بأنه يشارك في حياة دنيا أسمى ، ولو كان الواجب نتيجة تفكير أناني أو فلسفي لنبذه الكلب من زمن لأن الإنسان يقيس عليه في بعض الأوقات ويحدد عطفه ، وهذا أيضاً يصدق عن أدب هؤلاء الذين تصطفيهم الطبيعة ليقوموا بدور تضحية النفس. وسيوجد على الدوام ضحايا راغبة في تلبية مطالب الكون. والشعوب التي امتازت بالصلاح مثل الملاح البريطاني والفلاح الليثوني دريئة للاحتقار والمهانة من الشعوب الأقوى. والذي يطيع هو على الدوام في الغالب خير من الذي يأمر والفرد الذي أوقف حياته على الصلاح والخير محتوم عليه أن يكون موضع احتقار ، ولكنه مع ذلك سيظل يلعب دوره لأنه لازم لغرض الطبيعة. ويمكن أيضاً أن نقول كثيراً عن الاستقامة ولو أن البرهنة في هذه الحال تكون أقل قوة لأن هناك عقوبة تتزل بمن ينحرف عن جادتها في حين أنه ليس ثمة من عقوبة تحيق بمن انشق على الصلاح. والحقيقة أن الجميع متشابهون في وقوعهم في أحاييل الطائر الحكمة. ومحاولة محو عاطفة الورع من هذه الدنيا والعودة بكل شيء إلى الأنانية

اخضعة محاولة مستحيلة كمحاولة انتزاع أعضاء الأمومة من المرأة ، والأناني المزهو بنفسه لأنه أقام مذهبه في ضوء المصلحة الذاتية هو نفسه من مفاتين الطبيعة ، والأناني يكذب مذهبه آلاف المرات في اليوم ، وحياة الأناني نسيج من المتناقضات ومن الأعمال التي إذا نظرنا إليها من وجهة نظره وجدناها سخيفة حمقاء.

ايدوكس

الحقيقة أني لا أعرف قديسًا قد حمل إنكار النفس إلى الحد الذي حمّله إليه عالم من علماء عصرنا تعدد العقول السطحية كافرًا وماديًا.

فيلايت

لقد أصبت مفصل الحق ، ولا يوجد في مذهب من المذاهب قيمة مجردة للفضيلة مثلما لها في مذهبنا. وطاعة الطبيعة عندنا هي الاشتراك في العمل الإلهي ، ولقد رأى (كانت) بعقريته النادرة أن هذا هو أس الدين الذي ينشأ من العقل العملي لا من العقل المفكر ، والله وهو روح الدنيا الموكل بحفظها والقيم على مصيرها يحب الفضيلة ويقرها لأنها تخدم غرضه ، ولأنها تضيف حجرًا إلى البنيان الرفيع المتسامي إلى الأبد للفضيلة مركز سام في التكوين العام ، وهي الحاضض والحرك الأكبر للخطة الإلهية ، ومن ثم هي أقوى برهان على وجود هذه الخطة ، أن الفضيلة موجودة ومن اللازم أن نفسرها ، ولا يمكن أن يكون هذا الباعث القوي شيئًا زائدًا عن الحاجة والدين في الإنسان كبناء العش للطير ، فإنه بغتة تتولد في الكافي غرابية وخفاء غريزة لم يشعر بها من قبل ؛ فالطائر الذي لم يسبق له أن باض ولم ير ذلك بعينه يعرف الوظيفة الطبيعية التي سيقوم بها ؛ وهو يعمل بسرور وإخلاص لغاية لا يفهمها ؛ وكذلك النحل يمج العسل والنمل يخزن ما يخزن بغريزة بعيدة عما يميله الحزم الأناني.

وقد تم مولد العاطفة الدينية في الإنسان على هذا النمط ، كان الإنسان يحول غير مكترث ثم يسود فجأة سكون وكأنما يقف تيار حواسه ثم يرفع صوته (يارب ما أعجب مصري ! هل حقيقة أنا موجود ! وما هذه الدنيا ! وهذه الشمس هل هي

(أنا) وهل تنبعث من قلبي الأشعة ؟ يا أبتاه إني أراك وراء السحب ! ويعود ثانية ضوضاء العالم الخارجي وبسدل الستار على الرؤيا ، ولكن ابتداء من هذه اللحظة يشرع الكائن الأناني في الظاهر في القيام بأعمال لا تفسر وينجز أشياء تتنافر تنافراً ظاهراً مع مصلحته ويوقف نفسه لغاية لا يفقهها ويشعر بضرورة إحناء الرأس والعبادة.

آه ما أسمى سرور الرجل الصالح ! أنه مساك الدنيا وإذا وخزه ضميره عندما يستشعر العزلة ويرى نفسه عاجزاً عن دفع اعتراضات الماديين فليهبش ويشر فهو على الحق وهو الرجل الحكيم ، وهو واحد فرد بين مائة ألف ، وهو الذي يخلص صود يوم والأقلية التي يتصل بها هي عماد هذا الكوكب ، ولا توجد الدنيا إلا من أجله ومن أجل أمثاله.

فهناك إذن نظام أعلى للأشياء قد أحدثت بنا شباكه والطبيعة تتصرف بنا تصرفها برعيل من المصارعين مقدر عليهم أن تسفك دماؤهم وراء غاية ليست لهم ، وهي تعاملنا معاملة المستبد الشرقي لماليكه الذين يستعملهم لغرض خفي دون أن يظهر لهم بنفسه ، ويقوم بنفوس هؤلاء نوعان من الشعر ، ففي فريق منهم ينشأ شعور الثورة والكره لهذه الطاغية (وهذا هو الموقف الأخلاقي الذي وقف عنده شوبنهاور) ، وفي الفريق الآخر ينبعث شعور الاستسلام بل الشكران والحب لغرض الأشياء الخفي وهذا هو رأي فخته ، وهو الرأي الذي وفقت إلى الاستقرار عليه.

اتيفرون

أهنتك على ذلك ، وأنت موافق - على أي حال - أن كلتا هاتين الوجهتين شرعي إلى حد ما ونحن نخدم غرضاً قد فرضته الطبيعة. والطبيعة لا تكشف لنا عنه. ونحن كما ترى ضحايا على غير إرادتنا. فهل ينبغي لنا أن نكون ضحايا مستسلمة ؟

فيلاليت

نعم يلزم أن نكون كذلك. وشوبنهاور يناقض نفسه تناقضاً يجعل موقفه أقل صحة من موقف فخته. فهو يسلم بأن للعالم غرضاً. وقد عرض بجلاء ما كيافلية الطبيعة مثلاً

في الحب. ولكنه لم يدرك أن هذا يكفي لتأكيد الاعتقاد بالله ولإثبات أن للفضيلة معنى. وكان ينبغي لشوبنهاور أن يستخلص أن الفضيلة السامية هي الاستسلام أي قبول الحياة كما هي وعلى أنها تخدم غرضاً أعلى ومقدماته تدل على ذلك. وإذا كان للطبيعة غرض فلنضع جهودنا تحت تصرفها. وطاعة واتباع تعاليمها أو على الأقل مسابقة نزعها هي قانون. وإذا كان للحياة قانون فإنه يتبع ذلك أن لها معنى. وشوبنهاور ليس ثائراً من طراز بيرون وهنريك هيني فإن كليهما لم يعرف القانون الأخلاقي. بل هو في ثورته أشد جرأة لأنه غير مستسلم للطبيعة ويدعي حق عرقلة رغباتها ، فهو مذهب أولاً وعديم الفائدة ثانياً ؛ لأن الطبيعة ستنفذ طرقها وقد أحسنت تصريف الأمور وأحكمت الشبكة ومهما صنعنا فإن الطبيعة ستبلغ غرضها وهو خديعتنا لأجل مصلحتها ، والمسألة الخطيرة هي أن نعرف أن كان للطبيعة غرض وهذا ممكن إنكاره إنكاراً وجيهاً في ظواهره ، ولكن شوبنهاور لا ينكر ذلك ؛ ومن ثم فإنه من الصعب أن نفهم لا أخلاقيته ، وأنا أرى بوضوح مع شوبنهاور أن هناك أنانية عظيمة نخدعنا ولكنني - ولست في ذلك مثل شوبنهاور - مستسلم ، فأنا أذعن وأخضع لأغراض الكائن الأعلى ومن ثم ترجع الآداب إلى الخضوع والالاء أخلاقية قائمة على الثورة ضد حالة للأشياء قد فطنا إلى ما بها من خداع ويلزم أن ندركها ونخضع لها في نفس الوقت.

وثورة الإنسان هي الجريمة الأصلية ، وإذا تحرنا الصدق فإنها هي الجريمة الوحيدة الممكنة ، وقد قيدت الطبيعة الإنسان بحيل بارعة مثل الدين والحب وحاسة الخير والحق ، وهي غرائز تخدع الإنسان وتسخره لغايات خارجة عنه إذا نظر إليها من الوجهة الشخصية. والإنسان بتقدم التفكير يرى أخاديع الطبيعة شيئاً فشيئاً ، ويامعانه في النقد يهدم الدين والحب والخير والصدق فهل يعكف على هذا المبدأ أو تتغلب الطبيعة ؟ ربما كانت الأفلاك التي أدركها البوارهي تلك الأفلاك التي تغلب فيها النقد على حيل الطبيعة. وفي بعض الأحيان يخيل إلي أنه لو قبل كل إنسان فلسفتنا لانسأقت الدنيا إلى نهايتها وانقضى أمرها.

(أيدوكس)

ليس هذا بالأمر الذي يخشى خطره. فإن الناس لا تصدقنا في ذلك يا سيدي الفاضل. وستدق النواقيس على الدوام. وسترن قهليلات الطبيعة يد الدهر. وستوجد أبدًا أرواح نقية صافية تنغى نشيد الأفراح الغامضة. وإنما العزاء الداخلي العظيم السامي هو في التفكير بأننا نؤلف جزءاً من كل. وإن هذا الكل يتقدم مستمراً إلى غرضه. وأنه مهما اقتربنا من أخطاء فلا خوف من أن القارب الذي نبحر فيه يتعرض للخطر ودعنا لا نخدع في ذلك. وأن المدرسة الجديدة تعتبرنا نحن المثاليين خطرين مثل الأرثودوكس.

(فيلاليت)

المدرسة المادية على حق في ذلك (يعيش فينا إله فتشتد حماسنا وهو يحركنا) لا ترتضي هذه الفلسفة القزمية إلا الأرواح الواهنة ، والرجل العظيم ينبغي له أن يشترك في تأييد الخدعة التي تقوم على أساسها الطبيعة ، وإن أشرف عمل العقري هو أن يتآمر مع الله وأن يحايي سياسة الأبدى ، وأن يساعد على بث أحابيل الطبيعة الخفية ويناصرهما في خديعة الأفراد للخير العام ، وأن يكون أداة هذا الوهم العظيم بأن يبشر بالفضيلة للناس وهو عارف تمام المعرفة أنهم لا يستمدون منها منفعة شخصية ، مثلما يقود القائد الحربي جنده المساكين إلى ساحة الموت لغاية لا يفهمونها ولا يقدرونها ، أننا نعمل لأجل الله مثل النحل الذي يجمع الشهد للإنسان دون أن يعرف ذلك.

(أتيفرون)

ولكن الإنسان بالنسبة للنحلة فرد أسمى ينبغي لها أن تعرفه في حين أننا ليس عندنا شيء أسمى يمكن حصره وتحديدده داخل حدود الشخصية المحدودة ولو كان لنا كائن أسمى لكان من المحتم أن نعرفه ، ولا شيء يحدث أبداً مماثل لما يحدث عندما يخلو الإنسان خلاية النحل ليحني الشهد.

(فيلاليت)

الحقيقة أنه لا يوجد داخل المدى الذي تصل إليه وسائل ملاحظتنا أي شعور (أريد أن أقول أي شعور مفكر محدود) أسمى من الإنسان ، وإنما هناك شعور تلقائي مديد منبسط مسيطر على الإنسان ، ومن ثم تقارب فكرتنا الإلهين ، فلنساير أغراض الطبيعة ، ولنكن (ولو أننا لم نخدع) مخدوعين لها ، لكن مخدوعين بإرادتنا لما كيافليتها ، ولنتغلغل إلى مآربها ونستسلم لها ، وإما الشر هو الثورة على الطبيعة عندما نراها نخدعنا ، نعم حقيقة هي نخدعنا ، ولكن لنخضع لها. إن غرضها خير فلنرد ماتريده ، وإنما الفضيلة هي التزامك قول آمين لكل الغايات الخفية التي تعمل العناية على تحقيقها بوسطتنا.

(اتيفرون)

نحن في زعمك نكون جزءاً من خطة قائمة على التناقض مقصوداً به أن تصوير محسنة مدركة. ونكون أيضاً جزءاً من تلك السخرية التي تقول عنها بحق إنها فلسفية للغاية وأنت مستعد للموافقة على تلبيسات الأبدى. ولكنك مصر على أن يعرف أنك غير مخدوع به. ولقد طالما لحت فيك شعرواً ممتازاً مفرط الرقة وهو ضرب من الخوف من النظاهر بأنك تستمد أية منفعة من فضيلتك. وأنت تملك المراءة أشد المقت. بل قد بلغ بك مقتها إلى حد أنك بعد أن أكبرت الفضيلة كل إكبار تشعر بضرورة القول بأنك لا تحسب لها حساباً كبيراً ، وإنما ليست في الحقيقة سوى وهم. وأنك لتستطيع تكلف الفجر حتى لا تظهر بمظهر المرائي في عصر حشود الرياء مثل عصرنا ، حيث ينتفع الإنسان من كونه مفكراً صالحاً.

فيلايت

حقيقة ولو كنت قسيساً لرفضت باستمرار أن أتقاضى أجراً للقداس ، ولخفت أن أسلك سلوك التاجر الذي يسلم غرارة فارغة لقاء نقود مدفوعة له ، وأنا كذلك سأتردد في اجتناء أية فائدة من وراء اعتقاداتي الدينية ، وسأخشى من أن أظهر بأي أوزع وثائق زائفة وأني باستغواء الناس بالآمال المشكوك فيها اعترض سبيلهم في الحصول على نصيبهم المناسب في هذه الدنيا ، وهذه الأشياء حولها من الحق ما يبرر

كثرة لغط الناس بها وأن يعيشوا عليها وأن لا ينوا عن التفكير فيها، ولكنها مع ذلك ليست من التحقيق والثبوت بحيث يضمن الإنسان أن يشعر بأنه في احترافه تعليمها لا يمارس الغش من جهة نوع المقالة التي يلقيها.

اتيفرون

لقد امتد بنا الوقت ، وبرد المساء بشك أن يظهر أثره سريعاً في هذه الأدغال المتكاثفة ، وفي اعتقادي أننا وفيما بحث ما سماه فيلاليت في أول المباحثة (المؤكدات) ، ويمكن أن نتلاقى في الغد ثانية ، وربما أقدم بعض الاعتراضات لأنه ولو أنني أسلم بأن هناك إرادة عليا تسخرنا لرغبتها وتم غاية من الغايات بطريق الإنسانية ، فإني لم أعود اعتبار مثل هذه الأفكار في مكان الاعتقاد بالله أو الديانة الطبيعية ، وأود أن يكون معنا تيوفراست الذي سمعته مرة يقول أفكار جريئة عن أغراض الكون.

(فيلاليت وايدوكس) استصحه معك، وسنرحب بقدمه .

المحاورة الثانية المظنونات

المحاورۃ الثانیة

(المظنونات)

ایدوکس. فیلالیت. اتیفرون. تیوفرست

فیلالیت

فی محادثتنا بالأمس حاولنا یا تیوفرست أن نحدد أفكارنا بالضبط عن هذا النوع من الشعور المدرك الذي یتكشف عنه الكون فی کلیته ، ولقد کادت آراؤنا أن تستقر علی أنه ضرب من الشعور الغامض اللدنی يشابه الشعور الذي یهيمن علی نساء الجنین أو الحيوان وهو مع ذلك مكفول إلى حد عجیب ، ویحقق أغراضه بطرائق لا یخطئها السداد ، ولقد ذکر لنا اتیفرون أن ذلك آراء خاصة فی هذا الصدد فاطرحها لنا علی بساط البحث إذا كنت ترانا جديرین بفهمها.

تیوفرست

أعتقد أن هناك حاصلًا للدنیا وتزايدًا فی رأس مال خبرات الإنسانية والكون یتكون بتکثیر بطيء متوال مصحوب بخسائر فادحة ، ولكن الزیادة مستمرة کما فی نشأة المراهق ، ولا یمکث سوى الصالح ولا یمکن أن یقصر البقاء إلا علیه ، وليس یدوم علی البلي سوى الأموال التي کان الباعث علیها هو المثل الأعلى ، وأما غیر ذلك فهو فان زائل ، ولما كانت الأثرات المتنافسة یلغي بعضها البعض لذا فإن العمل التزیه وحده هو الذي یتروک الأثر الطیب ، والجهود الباقی جد ضئیل إلى جانب الجهود الضائع ، ولكنه وحده له الدوام وما خلاه زائل، ومن ثم ، یتكون رأس المال من تجمع العمل النافع ونصیب کل منا من الخلود بقدر الجزء الطفیف الذي یضيفه إلى مستودع الترقی البشري السرمدي ، والدلیل علی أن هناك میزانًا للأرباح والخسائر هو تقدم العالم إلى الأمام ، فإنه لولا تزايد الخیر فی الدنیا لعیقت عن الدوران ولظلت فی تناسق خامل أو أفنت جهدها فی محاولات عقيمة کالقاهرة المترلقة فوق قضبانها ، وأن القطار بخذافیره محمول إلى ناحية من العسیر معرفتها ولكنه یسير إلى الأمام ویتقدم بلا انقطاع إلى الأبدیة ویحملنا معه.

ولأجل أن نفهم هذا ينبغي لنا أن نرجع إلى تصور نشأة الحركة في العالم. فقد كان بدء الحركة في العالم ، ومن ثم بدأ التطور العام ، اضطراباً في التوازن ، ونفس هذا الاضطراب في التوازن نشأ من فقدان التجانس. لأن العالم لو كان متجانساً لبطلت حركته ولظل طوال الآباد خاملاً لا ينمو ولا يترقى. فلما إذا أذن لم يحتفظ الكون بالسكون ولماذا أثر المسير ومعاناة الأخطار ، عوضاً عن أن يستلقي راقداً في أحضان الرتوب المطلق ؟ لقد حثه مهما زود معه قلق مستمر إلى الحركة والاختلاج. وأزجى خفاء غامض السحب فنغشت الهدوء المتهجم في سماء الزرقاء. والذي يجلب الحياة هو على الدوام انبعاث فجائي من الجمود ، بل هو رغبة وحركة لا يعرف أحد مصدرها وهي شيء يقول (إلى الأمام) ! فلماذا يجاهد الجنين لترك رحم أمه ؟ ولماذا يألم الطفل عندما يشعر ؟ ولماذا لا يعفى من هذا كله ؟ ولكنه لا يعفى من هذا كما لا يعفى الشاب الذي ينقاد مع عاطفة الحب التي ربما تملأ حياته مرارة وتقضي عليه في النهاية.

وكذلك أصل الحضارة اختلاف في التوازن. والحياة والحركة هما مثل فترة الصوت بين السكونين. وهي فترة لا يكتسب فيها شيء ولا يفقد شيء. والعالم واجتمع يترعان إلى التناقص والتوازن بضرب من قانون القصور الذاتي ، ولكن في هذه التوازن فناؤهما وبدأ التاريخ - أو ما هو في معنى ذلك - الانتقال من الحيوانية إلى الإنسانية كان جريمة إذ هو انتقال فجائي من حالة النعيم الخالي من الفردية إلى حالة الحرب والحب والكراهة.

وما الذي أحدث الثورة الأصلية ؟ لقد تساءلت المدرسة الأبيقورية - وهي المدرسة العلمية القديمة - كما نفعل نحن الآن (ما هو القصد من توازن الأشياء المتعادية وما هي قوته) ولأي غرض نقص التوازن الأصلي في الأشياء؟ وأي باعث - سواء كان داخلياً أم خارجياً - استطاع أن يحركها ؟ لقد كان هذا الباعث هو التشوف إلى الوجود والظماً إلى معرفة نفسها والإحساس بنفسها. والضرورة في تمثيل المثل الأعلى. ومن ثم يظهر أن المثل الأعلى هو مبدأ تطور الله ونشوته. وأنه هو الخالق

بطبيعته وأنه غاية الوجود والحرك الأول له. والفكرة النقية الخالصة ليست إلا قوة والمادة الخالصة جامدة. والفكرة لا تتحقق إلا بالتراكيب المادية. والمادة هي مصدر كل شيء. ولكن الفكرة هي التي تحيي كل شيء والتي تدفعه إلى الوجود رغبة في تحقيقها ، وهذا هو الله ، فلا بناء بلا أحجار ولا موسيقى بلا أوتار ولا فكرة بلا مادة عطبية. ولكن الأحجار ليست هي البناء والكمنجات ليست هي الموسيقى والذهن ليس هو الفكر. وإنما هذه هي الحالات التي بدونها لا يكون البناء ولا الموسيقى ولا الفكر. وأن لحناً من ألحان يتهوفن على الورق يعد موجوداً بالقوة. والاهتزاز هو الذي يجعله موجوداً بالفعل. وهذا الاهتزاز حقيقة عضوية قابلة للوزن والقياس ؛ والفكرة قوة تريد أن تكون والمادة تعينها وتنقلها إلى الكينونة والواقع ، ومن ثم فإن قطبي الدنيا هما المثالي والمادي ؛ ولا يوجد شيء بدون مادة ، ولكن المادة هي حالة الوجود لا سببه. وإنما علة الأشياء ومصدرها هي الفكرة (العقل يحرك الأشياء كلها) ، والفكرة هي الموجودة في الواقع وهي وحدها الكائنة ؛ وهي تطمح إلى الوجود التام بإيجاد التراكيب الكيميائية المناسبة لإظهارها.

وقد انتهينا إلى نسبة الوجود الكامل للفكرة ليس غير ، أو للفكرة الشاعرة بنفسها أي على الروح. حقيقة أن للذرة وجوداً ولها هذه الميزة الفذة العظيمة وهي أنها غير قابلة للبلل. وإذا كان لزاماً علينا أن نصر على ما نعلمه فهي أبدية لا لأن الذرات لا تتحلل ولا تتركب فحسب ، بل لأنه لا يوجد شيء في حدود التجربة يعطينا أقل فكرة عن الكيفية التي يمكن أن تتكون بها الذرة. والكائن المركب يعتريه المريض ويدركه الموت. أما الذرة فلا يعرض لها المرض أبداً وهي على الدوام سليمة وذرة الكربون التي يتكون منها تراب الحجر هي نفسها التي تطعم نيراننا. ولكنها بلا شك مجردة من الشعور. والروح على خلاف ذلك إذ لها بدأ ولها انتهاء وهي تنشأ من تآلف الذرات والروح ولو أنها زائلة تفضل المادة وتفوقها وتنسينا إياها.

ايدوكس

إنك تقلب الأفكار الذائعة بشكل غريب ، وقديماً كانوا يتصورون التدبير الإلهي تصورهم لأعمال رجل من العباقرة أو صانع آلات عالي الشأن قبيئ الوسائل لإدراك الغاية ، وأنت الآن تتصور دافعاً تلقائياً للحياة وإحساساً غامضاً يتطلع في الكائن الذي يعمل على الاحتفاظ بذاته وإبلاغها الكمال.

تيوفاست

قديماً كانت الناس تتصور هومر يكتب في غرفة مطالعته مثل أحد الكتاب ، أما الآن فإن أشعار هومر تعتبر من عمل العبقرية اليونانية ، وهي لذلك ، تبدو لنا أجهل ألف مرة ، وقديماً كان الدين هو الخضوع لكائن أسمى أما الآن فإن الدين معناه عبادة الفكرة في نقائها أو كما أجاد في تعريفه سترأوس (هو ذلك العمل العقلي الذي يجمع أشعة المثل الأعلى إلى نقطة واحدة بعد انعكاسها في المظاهر المتعددة).

اتيرون

ولكن ما رأيك في الغرض الذي تصمد إليه الطبيعة وتحتال لبلوغه بكل هذه الطرق الحكيمة

تيوفاست

الكلمة التي تعبر أحسن تعبير عن هذا الغرض هي كلمة (الشعور التنبهي) والدنيا تترع إلى نصيب أكثر فأكثر من الكينونة. والكينونة في أكمل مراتبها هي (الشعور التنبهي)، وكل مجهود الدنيا متجه إلى أن تعرف نفسها وأن تحب نفسها وترى نفسها وتعجب بنفسها وغرض الدنيا هو أن تحصل العقل. وكل شيء يعين على الوصول إلى ذلك. وكل كوكب مشغول بصنع الفضيلة والعقل الذي تنتجه الدنيا بأجمعها هو غايتها النهائية كما أن عصارة الصمغ هي الغاية الأخيرة لشجرة الصمغ. والفكر هو الحاصل النهائي. وجاليليو وديكارت ونيوتن كانوا في أزمئتهم الحاصل الأخير للعالم؛ لأن أرقى نظر للعالم كان مستقراً فيهم والكائن في ذاته وهو هاوية من الظلام لا يقنع بالبقاء في عزلته. وقد وجد في الحيوان وقد وصل الحيوان إلى تأمل غامض للطبيعة. وفي ساعات الحب يستطيع أن يرى لحات من عالم الفن والجمال. والكلب

يكاد أن يصل إلى الفضيلة. وتناغي الطيور المغردة تسبيحات بديعة ترمي بها هذه الكائنات الصغيرة إلى شيء أكثر من السرور بتدريب حناجرها. ولكن كل هذا من الضؤولة ، بحيث لا يستحق الذكر والحياة تتمركز في الإنسان أكثر من ذلك بكثير. والانعكاس الحقيقي لأشعة الوجود إنما يبدأ بالعلوم والفضيلة السامية والفن الراقى. والإنسانية هي أسمى تعبير معروف لحياة الطبيعة. والذهن البشري هو أكمل آلة موجودة للإحساس بالكون - أو على الأقل في هذه الأجزاء من المكان التي يمكن أن يصل إليها بحثنا.

ولا مجال للشك في أنه يوجد آلات تفكير أسمى لا نعرفها. ولكن لنا الحق في أن نؤكد أنه لم يصل بعد كائن مفكر خارج كوكبنا إلى العلم بكل شيء والقدرة على كل شيء. إذ لا يوجد دليل على أنه قد وجد كائن مفكر استطاع أن يبسط نفوذه من كوكب إلى آخر. ولو كان وجد كائنات في أي مكان وعرفت قوانين المادة والقوة معرفة كافية بحيث استطاعت أن تعمل على مدى ملايين من الفراسخ ، لكنا عرفنا شيئاً عنها بحوادث خاصة لا تقبل التفسير المألوف ويبدو عليها طابع القصد والتعمد.

اتيفرون

سأتحاشى الكلام عن العوالم الأخرى ولا نزاع في أن عدد الأجرام السماوية التي يمكن الحياة أن تنمو بها في وقت معين قليل قلة غير محدودة بالنسبة إلى الأجرام الموجودة. والأرض في الحالة الراهنة ربما تكون هي الكوكب الوحيد المعمور وسط المكان غير المحدود فلنقصر كلامنا عليها. وأن غاية كالتى نتحدث عنها لمن وراء طاقتها ويجب أن تترك كلمات (القادر على كل شيء) ، و(العالم بكل شيء) للفلسفة المدرسية. ولقد كان للإنسانية بداية وسيكون لها نهاية وكوكب مثل كوكبنا ليس له في تاريخه سوى عصر واحد تكون حرارته مناسبة للسكنى. وسينتهي هذا العصر بمرور مئات قليلة من آلاف السنين. ولا سبيل للشك في أن الأرض ستصبح مثل القمر كوكباً أنصاه البلى قد أوفى على غايته واستنفد رأس ماله - أي فحمه

ومعادنه وسائر قواته الحية وشعوبه. والحقيقة أن مصير الأرض ليس غير محدود كما تتوهم بل هي مثل سائر الأجرام السابحة في الفضاء ستستمد من جوفها كل ما يمكن أخذه ، ولكنها محتوم عليها الموت كما قال حكيم تيمان في سفر أيوب (قبل أن تصل إلى الحكمة).

تيوفرست

لا نزاع في أن كل تطور محصور بسبب ضيق الوسط الذي يستثمر موارده ، ولكن كلما ترامت حدود الوسط قل انحصار التطور. وليس نماء العقل مقصوراً على الإنسان وموارد هذا الكوكب الأرضي الضئيلة. وسيمتد تقدم الروح امتداداً لا تقاس أبعاده إذا نشأت علاقات بين الكائنات المفكرة في الكواكب المتعددة ، وبخاصة إذا تأكدت الروابط بين سكان العوالم النجمية المختلفة. وقد يجيء يوم يتحد فيه العالم ويكون جمعية واحدة لها عاصمة واحدة. وستكون حينذاك موارد الروح لا نفاذ لها. ويتراكم المبالغ بطريقة لا نهائية ستتمكن الإنسانية من اقتحام عالم المثل الأعلى.

اتيفرون

ولكنك تقف هنا موقفاً بعيداً عن المشاهدة نابياً عن التصور. وما هو القانون الذي تسير عليه كل ضروب النماء في الحياة ؟ ابتداء مهين وتقدم بطيء يعقبه تقدم سريع وكمال نسبي يتلوه اضمحلال بطيء ثم انحلال سريع يعقبه الموت. وكل شيء يجعلنا نعتقد أن الحضارة بعد أن تبلغ أسمى مراتبها تنحدر في مهاوى الانحطاط ، لأن قوى الإنسانية الأدبية والعقلية محدودة ، ونمو الإنسانية يشبه نمو الفرد الذي له طفولته وشبابه ونضوجه ثم الشيخوخة وحتى الآن لم نر أثر هذا القانون إلا في نمو الأفراد والأمم والأسر ، ولقد فجرت الإنسانية موارد لتجديد الشباب ورد نضارته على الجماعات التي علاها الكبر ، ولكن هذه الموارد ربما تنضب يوماً ما.

وقد تعترض علي بأن هناك شعوباً على الفطرة بيننا ولكنها شعوب قديمة قد أوهى الزمن منها أكثر مما أواه منا ، ويوجد بين الألمان وبخاصة بين السلافيين طبقات كثيفة من الأهالي لم تصل بعد إلى الضوء ويملاًها الأمل في المستقبل ، ولكننا إذا

تجاوزنا هؤلاء لا نرى سوى سقوط شعبي ستتغلب فيه العناصر السافلة بضخامة عددها وتبید بانتظام كل الذين تظهر فيهم ثانية الشعوب النبيلة القديمة تبعاً لقانون الرجعي ، والمخطاط البشرية المخطاط لا دواء له ممكن ومحتمل ، وأن نقص الأفكار السليمة وقتلها في مسألة عدم مساواة الشعوب قد ينجم عنه المخطاط العام. والخطر الذي يتهدد الكوكب هو أن الأنانية باستغلالها أكبر نصيب من جهد الأفراد بالحصار عبادة الحق والخير والجمال في عدد قليل من النبلاء - أقول أن الخطر هو أن الكوكب قد يرجع القهقري إلى حالة يكون فيها من المستحيل وجود فكرة واحدة نزيهة ؛ لأن كل الأفراد قد صاروا يشعرون بحقوقهم ، وعدم تساوي الطبقات وهي ظلم سائد في صميم ذات الشعب هي سر تقدم البشرية ، وهي السوط الذي يستحث الدنيا على التقدم إذ ينصب للمجتمع غاية يقصدها ، تصور ماذا تصير إليه حالة الدنيا لو سكنها الزوج وحدهم وقصروا كل شيء على شهواتهم الفردية وسط العامة الغامرة وأقاموا التحاسد وطلب المتعة والرغد المادي مقام البحث الشريف عن المثل الأعلى ! لو سادت بيننا مثل هذه الروح لكان هذا هو نهاية الحضارة وخاتمة كل مجهود وراء العقل ، ومثل هذه الخاتمة هو أخوف ما نخافه إلا إذا وجدت وسائل تجعل مقاصد العبقري تنصرف على أفكار الماديين الحقيرة هؤلاء الماديين الذين لا يعينهم إلا إشباع شهواتهم المتسفلة.

وفضلاً عن ذلك فإنه قد ينشأ خطر شديد من توافر العلم توافراً غير محدود في ميدان العقل البشري المصور ، إذ يخشى أن ينوء الذهن البشري تحت عبئه وأن يكون نفس ترقيه علة المخطاطه ، ويمكن أن نتنبأ بعصر المخطاط مثل العصور الوسطى ، إلا أنه لا يعقبه عصر إحياء العلوم ولا يستطيع فيه إنسان أن يفهم أية فلسفة مهما كان نصيبها من السمو ويكون فيه كتاب لا بلاس عن النظام الفكري كتاباً غير مفهوم قد قضى عليه بالضياح إذا لم تكن ثمة نسخ منه محفوظة في الرقاق بعد أن اعتري البلى ورق أحسن طبعاته.

تيو فراست

هذا محتمل كل الاحتمال ولكنه لا يمس موضوعنا. ولسنا نقول بأن الإنسان سيصل إلى العقل المطلق. وإنما نجزم بأنه سيصل إليه شيء يشبه الإنسانية. ولقد جربت حتى الآن آلاف المحاولات وستجرب آلاف أخرى بعدها. وسيكفي نجاح واحدة منها. وقوى الأرض كما رأيت بحق محدودة ، ومن الواضح أنه إذا لم تؤد نظرية الحرارة الآلية في خلال خمسمائة أو ستمائة سنة إلى اكتشاف وسائل لسد نقص الفحم فإن الإنسانية سترين عليها العامية ويكون من الصعب أن تميّط عنها وخامتها وتقيّل عثاها ، ولكن هل نظرية الحرارة ستصل إلى هذه الدرجة من الكمال ؟ هذه مسألة فيها نظر ، وقد يعترض تقدم الروح البشرية عوامل رد فعل معادية تجعلها عاجزة عن التفكير في أشياء أسمى من الواقع ، وفي الوقت الحاضر لا يوجد أكثر من خمسين شخصاً في قدرتهم مسايرة تقدم علوم خاصة والسير بها إلى الأمام ؛ ومثل هذه الثقافة انحصورة في عدد جد قليل من الأذهان يمكن القضاء عليها بسهولة ، ويكفي لذلك مجلس تفتيش معتدل في شدته كالذي رآته إيطاليا في القرن السادس عشر أو إجراءات كالتّي اتخذها لويز الرابع عشر ضد الهيجونوت ، وهبوط الحرارة الفكرية درجة أو درجتين يكفي لإبادة هذه المخلوقات الدقيقة التي لا تنمو سوى في أحوال ضيقة المضطرب مثل النباتات المحفوظة في المقاصير الزجاجية وهكذا قد تملك الإنسانية على قيد غلوة من الجسر الذي ينجيها ومصير الدنيا قد يتوقف على رجل فرد أو عدد قليل من الرجال الذين ربما يستطيعون التغلب على الصعوبة التي أعجزت الإنسانية برمتها ، ومن الجائز أنه كان هناك دين - كما سيكون - مات في الشقاء بها رجل كان في ذرعهم أن يخلصوا الكون وينقذوه ولم يجدوا الظروف الملائمة لتطورهم ؛ وأنه كان هناك عوالم أخرى سحق فيها جرثومة الحضارة رجال هدامون من طراز فيليب الثاني قد نجحوا في إقامة الحوائل في سبيل تقدم الروح.

وقد يعترض تقدم الإنسانية أحوال كثيرة ، ولفقدان الاتصال بين الدين المختلفة فإن المحاولات غير الموفقة تترك كل شيء حيث هو لأن المحاولة التي لم تثمر يغطي عليها

النسيان فلا تصلح لتكون نقطة ابتداء بعد ذلك ؛ وقد أمدت الحضارة القديمة بعد سقوطها الحضارة الحديثة بطريق الآثار المكتوبة والمرسومة التي خلفتها تلك الآثار التي درست أحسن دراسة في عصر إحياء العلوم ، ولو كانت مثل هذه الحالات والجهودات للرقي قد تمت في كوكب مثل المريخ أو الزهرة لكانت بالنسبة لنا كأنها لم توجد قط .

فهل يمكن أن يكون مصير الأرض على هذه الصورة ؟ هذا ما نخافه ولكنه غير محقق والأرض على ما بها من نقص لها مزية التغيير الدائم ، ولن تصل الإنسانية يوماً إلى التوازن الذي هو خاتمة الرقي مثل النمل والنحل الذي وصل إلى حالة الدعة والراحة .

على أن هذا أمر ضئيل الأهمية ؛ وقد تفشل الأرض في آداء رسالتها أو تستنفد أسباب وجودها قبل أن تنجز عملها كما حدث بآلاف الملايين من الأجرام السماوية ، ويكفي أن تم واحدة من كل هذه الأجرام عملها وتبلغ غايتها . ولا يعزب عن بالنا أن التجربة في هذا الكون إنما تجرب في عدد لا نهائي من الدني . وواحدة من بين هذا العدد العديد ستبلغ العلم الكامل ولنذكر أن النجاح مرة واحدة يكفي . والكون أشبه بأوراق النسيب تسحب كل أوراقه . وعندما تظهر الورقة الراجعة لا يكون هذا من قذافات الصدفة وإنما هو من الحتم والضرورة .

وهناك وسيلتان لإدراك الغرض . وهما أن نصوب نحوه بإحكام أو أن نطلق طلقات عدة فتصيب واحدة منها الهدف المنشود . والقنبلة الواحدة المصوبة تصويباً محكماً تعادل عشرة آلاف قنبلة لم يحكم تصويبها . وتأمل الخسائر في مادة تلقيح الأزهار فإنه لا يكاد يلج إلى الصمامة سوى جزء من مليون منها . وبيض سمك الحوت مثال للتبذير أوسع حدوداً والطبيعة تتصرف تصرف عامل لا يبالي بمواد عمله ويبذر تبذيراً ذريعاً . ولا يهم الطبيعة فتيلاً أن تفقد كل هذا المقدار من قوتها فإنها زارع يبذر حبوبه جزافاً دون أن يلقي باله للحبوب التي تقع على الحجر . وواحدة من مئات آلاف الحبوب تثمر . وهذه كافية . ولنفرض أن جرائم الحياة متقلبة في الفضاء

تبحث على غير هدى عن الثقب الذي يمكن أن تثمر فيه. ففي مثل هذه الحالة تكون الفرصة المتاحة لهذه الجرثومة أو لتلك فرصة نادرة بعيدة ، ولكن إذا كان عدد هذه الجراثيم غير متناه فإنه لابد من ولوج واحدة في هذا الثقب. أو لنفرض وجود قبة من البلور ممتدة على مدى ألف مليون فرسخ بها ثقب قطرة لا يتجاوز جزءاً على اثني عشر من القيراط وحولها حشرة عمياء تضرب بجناحيها إلى الأبد باحثة عن الثقب لتلج منه ، فإن هذه الحشرة ستنجح إذا أعطى لها متسع من الزمن غير محدود وفرصة عوض عليها عدم مواتاة الصدف والطبيعة لا تبذل مجهوداً لاجتناب اشتباك الطرق وضيق المسالك. والحوث الصغير المحفوظ في الحوض ينمو أكبر فأكبر حتى يتنفذ كل ما يمكن استنفاده من أسباب حياته والشجيرات تنمو في تجاوزيف الصخور كما تنمو في الأرض البراح ، وكل شيء يستطيع أن ينبت فإنه ينبت دون أن يحسب حساباً لأي اعتبار آخر ؛ وأذكر أنني شاهدت سليحفات في قاع وادي الحمول في سوريا ، وكنت أعلم أن الوادي ستغيض مياهه ولذا كنت أدرك أنها ستموت خلال يومين ولكنها لم تكن تفكر في شيء من هذا القبيل. كانت مسرورة مرحلة كدأها.

والطبيعة كلها تتم على احتقار للفرد. وبهاء عاصمة من العواصم إنما يقوم على انقراض من الحياة الريفية حيث يعيش الملايين عيشة غامضة الشأن ليعملوا على إيجاد بعض الفراش المتألف الذي يجيء ليحترق في الضوء. وأنه لابد من تصفية ثلاثين أو أربعين مليوناً من شعوبنا الحديثة الكثيفة الجماجم للحصول على شاعر كبير أو عبقرى من الطراز الأول ، ويندر ظهور العظيم في مجتمع مكون من خمسة ملايين أو ستة ملايين لأن الانتخاب يجري في دائرة محصورة. وإنما ينبغ العظيم في شطر من الإنسانية قد نفى كل تنقية وصفى أحسن تصفية. والكوكب الصغير يخلو من العبقرية ولا يوجد في الكيلو متر المكعب من ماء البحر سوى كمية قليلة من الفضة ذات قيمة. وفي المتر المكعب الواحد لا قيمة لها على الإطلاق.

والكون مثل الآلة القوة المثمرة فيه جزء من القوة التي تنفق. ولكن الكون مثل سائر آلات الطبيعة يمتاز بضؤولة القوة المثمرة بالنسبة إلى حجمه. وعلى وجه العموم فإن

آلية الكون ناقصة كل النقص من الناحية الاقتصادية. وأن الطبيعة تشبه معملًا يستهلك فيه مائة ألف قطار من الفحم الإنجليزي ، لكن تعمل عمل قطار واحد ولا تكاد ترى في المليون من الرجال (الرجل النافع). ومن ثم ترانا نميل إلى أن نستنبط من ذلك انحطاط الأرض ونحسب الكوكب الخالي من الحمقى الجهلاء والأشرار الماكرين أسمى منها ، ولكن هذا وهم ، وأن العمل الذي يقصد به خدمة الحق صغير في المظهر ولكنه وحده الباقي كل ما خلاله يذهب هباء وأن رأس مال الحق ولو أنه متجمع من وفورات جد صغيرة هو في زيادة مطردة ، والسخافات والأخطاء يبطل بعضها البعض. أما الحق فإنه - على النقيض من ذلك - هو الباقي وهو البعيد الأثر وهو هو خلاصة مجهود الإنسانية إذا ما ذهب السخف والحماسة شعاعًا بددًا. والموت يعني على الأحمق والشرير كل تعفية.

ولا خلاف في ضخامة عدد الأنانيين والماديين واللا دينيين الذين لا يخدمون المثل الأعلى ، ولكنه بحسبه أن يكون له أشياخ قليلون ؛ والفلسفة هي فاكهة شجرة الإنسانية ولكن الفاكهة ليست بشيء إذا قيست إلى ضخامة الشجرة ، والدوحة الهائلة تثمر فاكهة في حجم الإصبع ووظيفة هذا الفرع الباسق هو أن يخرج مثل هذا الجرم الصغير ، والفلسفة وهي غاية الخليفة كانت تعيش من قبل على فئات موائد الأمراء الذين حموا جانبها ضد السخف المستفيض ، وهي الآن تعيش على فئات مائدة الدنيا ، وهذه الحالة علا ما بها من مهانة أفضل مما لو كان الفلاسفة في الدنيا بالمكانة التي يجب أن يكونوا بها حسب ما نعتقد ، وهناك تجربتان يثبتان الخطأ الكامن في حبس الأموال الجسيمة على الأعمال الروحية فقد كانت الثروة التي جمعتها الكنيسة في العصور الوسطى لا تصرف في الغاية التي قصدت بها ، والصدقات الجزيلة الموهوبة للجامعات الإنجليزية موزعة بحيث أن جزءاً قليلاً منها يصرف في وجوه الأغراض العلمية.

ومن المؤكد أنه لو كان مركز كل إنسان في الدنيا مناسباً للخدمة التي يؤديها للمثل الأعلى لكان من الواجب أن يكون ديكارت ونيوتن وجاليليو وهيغز من الأمراء أو

من أصحاب الملايين في عصرهم ، ولا يستطيع إنسان أن يقول أن الخدمات التي أدلها لبيته أو أمير تعادل نسبة الألف إلى الواحد ، ولكننا بعد أعمال الفكر نرى أن بقاء الأشياء على حالتها خير وأبقى ، وحتى إذا صارت الأرض تابعة لنا فإن الأنسب هو أن ندفع أزمة أمورنا إلى يد الدنيويين الذين تحميمهم خفة أحلامهم وعلظة أنانيتهم من وساوسنا وارتباكنا ، وأن وجود الأغنياء الذين نحسب أن حياتهم عديمة الفائدة وأهل التألق والمودة له من الخطر أكثر مما نقدر. فإن وجود أمثال هؤلاء لازم لإطلاق الخيول في المضامير وإقامة المراقص وبالاختصار للقيام بأعمال المظاهر الفارغة التي يضيق بها ذرع الحكيم ولاستنفاد تلك الملذات التي يخشى أن يتلهى بها.

ونحن لا نعرف إلى أي مدى نحن مدينون لهؤلاء الذين يأخذون على عاتقهم عباً أن يكونوا أغنياء من أجلنا. وأنه لا يوجد سوى عدد جد قليل من الأذهان في طاقته أن يتفلسف ، فالتجمل والتزين واللقاءات في غابة بولون ؛ ومظاهر الأبهة والأبرا والسباق تستنفد مجهوداً لو لم يصرف فيها لكان مجلبة للضرر ومفسدة للنوازع الذهنية السامية ؛ نعم أن كل هذا اللغط الدنيوي لازم ليجلس رجل مثل كفيفه أوب هادناً في حجرة مطالعته إلى جانب مكتبة قيمة غير مكره ولا مغرى بأنه يضع وقته في مثل هذه المظاهر الفارغة ؛ ومن ثم كانت البلاد التي يوجد بها نظام الطبقات أكثر ملاءمة للعلماء لأنهم في مثل هذه البلاد لا يكون عليهم واجبات سياسية ولا اجتماعية ولا شيء في الحقيقة يعترض سبيلهم ، من أجل ذلك ينحنى العالم برغبته (في شيء من السخرية) إزاء رجال الحرب ورجال الدنيا ، والمفكر الهادئ يعيش متخلفاً عنهم ويتبعه على آثاره القسيس بتشدهد والناس بأحكامهم الناقصة وأفكارهم العامة.

والعقل نصيره الزمن ومن هنا تصدر قوته. وهو لا يخسر فرصة صالحة. بل هو على النقيض من ذلك فإن كل ما عداه يذهب سدى. وأمام الإنسانية داخل حدود هذا الكوكب متسع من الأجياء المتطاولة قبل أن يدركها الانحطاط وستمر بأدوار متتابعة من النضوج والنضارة. وفي الحين الذي يتمشى الفساد في الفاكهة الناضجة تكون

الفاكهة الجديدة في طريق التكوين ، وعدد المحاولات لا يمكن حصره ، وسيقتحم المضيق ويصل المرفأ شعور تنبهي واحد من بين العدد اللانهائي.

اتيافرون

إذن أنت تذهب إلى ما ذهب إليه هجل فترى أن الله غير كائن وإنما سيكون.

تيوفاست

لا أذهب إلى هذا بالضبط ، وأن المثل الأعلى موجود هو سرمدى ، ولكنه لم يتحقق بعد مادياً ، ولكنه سيتحقق يوماً ما ، وسيحققه شعور تنبهي يشابه شعور الإنسانية ولكنه سيكون أسمى كثيراً من حالتنا الحاضرة التعسة المهينة ، بل أنه سيكون من السمو بحيث أن نسبتنا إليه ستكون كنسبة آله مارلي القديمة إلى الآله البخارية الكاملة. والعمل الموكول إلى كل حي هو أن يعمل على كمال الله وأن لا يدخر جهداً في هذا الغرض الذي سيتم دائرة الأشياء بالوحدة. وحتى الآن قد تكفلت الغرائز العمياء والميل اللاشاعر في الأشياء بالقيام بهذا العمل. ولكن العقل الذي لم يشترك بعد في هذا العمل الكبير سيتولى أموره ويضطلع بأعبائه ويعمل على وجود الله بعد تنظيم الإنسانية.

ولا نهائية الزمن هي العامل الأكبر في هذا الشأن. وأنا لا نرى شيئاً في تاريخ الإنسانية قبل عشرة آلاف سنة. ونشاط الحركة العلمية لا يرجع تاريخه إلى أكثر من قرن. فماذا ستكون الإنسانية بعد عشرة آلاف أو مائة ألف سنة؟ وماذا ستكون الدنيا بعد مرور ألف مليون سنة ؟ ربما لم تكن الأرض موجودة منذ ألف مليون سنة. كانت متصلة بالشمس ولم يكن القمر قد انفصل عنها. فما الذي ستصير إليه في مدى ألف مليون سنة ؟ من المستحيل أن نعرف ذلك ولكن هذا اليوم آت لا ريب فيه وليست عندنا فكرة محدودة عن حالة المادة في باطن الأرض ، ومع هذا فإن هذه الحالة التي لا يمكننا أن نتصورها موجودة على بعد خمسمائة فرسخ منا.

ولا يعزب عن فكرنا أن الإنسانية في يدها الآن وسيلة لم تكن من قبل وهذه الوسيلة هي العلم ، ولقد توصل العلم في أقل من مائة سنة إلى استخدام البخار والسكك

الحديدية والتلغراف الكهربائي. والفوتوغرافيا والإنارة بالغاز وآلاف الاختراعات الكيميائية. وإدخال العلم في الفنون الحربية لا يرجع إلى أكثر من ثماني سنوات أو عشر مضت ، وقد أحدث تغييرات تذهل فردريك الأكبر ونابليون لو كان أتيج لكليهما أن يبصرها. وليس من اليسير التنبؤ والأخبار عن حالة الصناعة وفن الحرب بعد مائة سنة ، ومن العبث التأم أن نحاول معرفة ماذا سيصير إليه ذلك بعد ألف أو عشرة آلاف سنة. ولا شك في أن الأرض ستكون موجودة بعد عشرة آلاف سنة وستكون صالحة للسكنى برغم ما يعترئها من أسباب الانحطاط المتفام.

وأعرف الأخطار التي ستحف بالحضارة من جراء نقص الفحم وذيوع الأفكار الأنانية ، وهما حادثتان من معدن واحد فإن انتشار الأفكار الديمقراطية الوضيعة نفسه ضرب من نفاذ الفحم ودليل انطفاء الحماسة الأخلاقية ، وانقضاء الإخلاص والتفاني ، وآية إفلاس الموارد الاقتصادية القديمة في الأرض ، وأحياناً يخيل إلي أن الأرض في المستقبل سيسكنها النوكي الذي يتدفأون في الشمس ويعيشون عيشة حمول وتبلد لا يملكون فيها سوى ضروريات الحياة المادية ؛ ولكن العلم سيعمل على تلافي ذلك ويتدارك خطره وسيستدفع الخطر الأول بالاحتفاظ بحرارة الشمس أو قوة المد والجزر ، وسيدراً الخطر الثاني بتقدم فن الحرب الذي سيكون قوة منظمة في يد أرسقراطية فكرية أخلاقية ، وجيوشنا في الوقت الحاضر تشبه ذلك من بعض الوجوه وهي تمكن من في يده قيادتها من السيطرة على الجماهير العزلاء غير النظامية ، ولكنها بما ضعف متأصل لا طباب لدائه لأنها مؤلفة من صفوف الناس. وإذا كان الحسد والجشع قد أفسدوا الناس أجمعين فسيكون من المستحيل الاعتماد عليهم في كبح هذه الأهواء الشريرة. وإذا كنا نريد أن نتخيل حالة يحسن أن تستقر عليها الأشياء فلننتصور فئة قليلة من الحكماء يحكمون الإنسانية بوسائل لا يعرفها سواهم ولا يستطيع أن يستخدمها سائر الناس لأنها تتطلب البسطة في العلم المجرد.

ومن ثم فإن العلم هو العامل الأكبر في إناء الشعور التنبهي الإلهي ومن الناحية الفكرية هو الكون يتعرف نفسه. ومن الناحية العلمية فهو يقدم للقوة الإلهية وسائل

لا يمكن أن نقدر مدى تأثيرها. والحقيقة أن ترقى الشعور التبهى كان الفضل فيه حتى الآن لقوى الطبيعة ولغريزة تختلف اختلافاً يسيراً عن الغريزة المسيطرة على مولد الحيوان ونشأته. وسيتدخل في ذلك يوماً التفكير المستنير وسيصلح العلم عالم الغرائز وكثير مما نلحقه الآن بباب الغريزة سندرجه بباب التفكير.

أيدوكس

سيضر ذلك بالفن

تيوفرست

لا يخالني في ذلك شك. والفن الراقي سيذهب. وسيأتي اليوم الذي ينظر فيه إلى الفن على أنه أثر من آثار الماضي ، وأنه من خلق العصور غير المفكرة وتحترم مكانته مع الاعتراف بأنه قد لعب دوره. والنحت وفن البناء والشعر اليوناني قد وصلت إلى هذه الحالة. وهذه العجائب في أيامنا من المستحيلات وحتى إذا نجح أحد في الطبع على غرار القدماء فسيكون ما أنتجه شيئاً خالياً من الحياة لا ضرورة لوجوده. وموقع فننا من هذه الآيات الفنية التالدة مثل موقع البناء المشيد بالأحجار من البناء المشيد بالرخام. وأيام النحت الزاهرة تصير معدودة من منذ اليوم الذي تمتنع الناس فيه عن المسير أنصاف عرايا والذي يصبح فيه جمال الجسم شيئاً ثانوياً. والشعر الحماسي يذهب بذهاب عصر البطولة الفردية وليس للشعر الحماسي مكان بجانب المدفعية. وكل الفنون خلا الموسيقى متصلة بظروف وأحوال قد خلت وحتى الموسيقى التي يمكن أن نعتبرها فن القرن التاسع عشر ستنتهي مهمتها وينقضي شأنها ، وماذا يكون من أمر الشاعر والرجل الفاضل أن الشاعر هو المعزى والرجل الفاضل هو خادم المريض ، هذه وظائف نافعة لا ريب ولكنها وقية لأنها تدل على وجود الشر ، هذا الشر الذي يؤمل العلم أن يذهب بقوته.

ورقي الإنسانية ليس رقياً فنياً البتة ، والطبيعة تبلغ قصدها بالفضيلة والفن والعلم ، وبخاصة بالعلم ، وقد يأتي اليوم (ونحن الآن نرى فجر هذا اليوم) الذي يكون فيه الفنان الكبير والرجل الفاضل أشياء غير عليها القدم. وبطل نفعها. بينما العلم

تزداد قيمته ويرتفع شأنه وسيختفي الجمال بقدوم العلم. ولكن تقدم العلم والقوة البشرية هما أيضاً أشياء جميلة. وما الذي تعجز عنه الفسيولوجيا مثلاً عندما تكون قد أحلت محل تلك الطريقة التجريبية التي تسمى الطب. ولا تزال مسألة التناسل والتربية خاضعة تقريباً للصدفة. ولم يؤثر فيها العلم بعد ، وتصور الثورة الاجتماعية التي ستحدث عندما تتمكن الكيمياء بمحاكاة فعل أوراق النباتات وامتصاصها أكسيد الكربون من الهواء من اكتشاف غذاء أرقى من ذلك الغذاء الذي تنتجه الخضروات والبهائم وسأقي اليوم الذي لا يرى الإنسان نفسه مضطراً إلى الذبح للقتل ، وأن اليوم الذي يخفي فيه منظر وضم الجزار الكريه سيكون دليل رقي في تهذيب المشاعر وما الذي سيحدث عندما يصير الإنسان قبل كل شيء مسيطراً على القانون الذي يسبب نوع الجنين وعندما يكون في وسعه أن يطبق هذا العلم تبعاً لإرادته ؟ وهذه إحدى الاستكشافات القابلة للتحقيق في المستقبل غير البعيد.

فيلايت

إنك تدنو الدنوكله من رأي تيوكتست. ومما يؤسف له أنه ليس هنا.

ايدوكس

تيوكتست يتطرف في آرائه وهو يخطئ في محاولته أن يصور صوراً دقيقة لما لا يمكن أن يدرك إلا إدراكاً غامضاً. ولكن أشعة من الضوء لأتني تتطاير من ظلامه الدامس. وفضلاً عن ذلك فإنه جاد وجليل وبسيط ومخلص (ثم يلتفت إلى فيلايت) حاول أن تصحبه معك.

فيلايت

سيكون هنا غداً.

المحاورة الثالثة المتخيلات

المحاورة الثالثة

المتخيلات

فيلايت. اتيفرون. ايدوكس. تيوفراست. تيوكتست

فيلايت

أمضينا سحابة اليومين الأخيرين - ياتيوكتست - في استجماع أفكارنا عن غاية هذا الكون واخر ك الحفي له. ونعلم أنك مثلنا تعالج أمثال هذه الأفكار وتساهم في الهدوء العميق الذي تفيضه على النفس ، وقد كادت آراؤنا أن تستقر على أن غاية الكون هي العمل على إيجاد شعور مفكر أكثر تدرجاً في الكمال. ولسنا نعرف صورة لهذا الشعور المدرك المفكر أسمى من الإنسانية. ولكن دون أن نفكر فيما يمكن أن يوجد في الكواكب الأخرى ، فإن خيالنا يجترئ على أن يكون لنفسه بعض أفكار عن ترقى شعور الإنسانية المدرك في المستقبل.

تيوكتست

أنا أذهب إلى مدى أبعد من ذلك. وأطلق العنان لخيالي ليتصور تاريخ ما يوجد وراء حدود الإنسانية. وفي صورة تفوقها وتسمو عنها وبالاختصار في أن أفرض أن للكون غرضاً أسمى من الإنسانية.

فيلايت

ابسط لنا أفكارك في هذا الصدد

تيوكتست

أن هي إلا أحلام

ايدوكس

لو كتب كل إنسان أحلامه عن اللاهوائي لظهر جانب من الحق خلال هذه الأحلام. ولكن قليلين من رزقوا مثل هذه البراعة.

تيوكتست

ينبغي لنا قبل أن نخوض غمار هذا البحث أن نكون على جلية من معنى كلمة (الشعور) وليس من شك في أن الشعور لا يكمل إلا عند ما يتناهى في ذاته فردية ويتمركز في جهاز عصبي مكون من مجموعة عصبية ومحرك لتكوين عضوي معين. ولكن يوجد مع ذلك مجاميع من الأحياء ليست مشخصة على هذا النمط ، وأن أمّا مثل فرنسا وألمانيا وإنجلترا ومدنًا مثل أتينيا وفينيسيا وفلورنسا وباريس لتتصرف تصرف أفراد لها عقلها وميزتها الخاصة ومصالحها المحدودة ، ويمكن أن نتحدث عنها كما نتحدث عن فرد من الأفراد ، ولها مثل الكائن الحي غريزة خفية وشعور بالجوهر وحرص على صيانة النفس وهذا إلى حد أنه إذا تركنا أسلوب التفكير السياسي فإن الأمة والمدينة يمكن أن يقارنا بحيوان بارع الحيلة بعيد الغور عندما يحاول الاحتفاظ بكيانه وتأييد نوعه ومثل هذا يلزم أن يقال عن الكنائس والأديان وعن كل الجمعيات التي تكون مجاميع عضوية والتي تتصرف تصرف الفرد وتسلك سلوكه وأعظم ما انتهت إليه الفسيولوجيا الحديثة هو أنها ترى أن حياة النبات وحياة الحيوان ليست سوى مجموع أنماط أخرى من الحياة قد تضافرت وانسجمت واندجت في وحدة فذة. وحياة ذي الفقرات هي نتيجة تركز فردية كل فقرة ، والشجرة هي ائتلاف آلاف البراعم ، فكذلك الشعور هو نتيجة تجمع ملايين المشاعر متجهة إلى نفس الغرض ، وأن الخلية هي تركز صغير شخصي ولكن عددًا كثيرًا من الخلايا ينشأ عنه شعور من الدرجة الثانية (إنسان أو حيوان) والشعور في الدرجة الثانية عندما يتجمع يتكون منه شعور من الدرجة الثالثة مثل شعور المدن والكنائس وشعور الأمم الناشئ من انتظام فكرة واحدة لملايين من الأحياء واشتراكهم في العواطف. والمادي لا يرى في الوجود سوى الذرة. ولكن الفيلسوف الصادق والمثالي يريان أن الخلية أصدق وجودًا من الذرة. وأن الفرد أصدق وجودًا من الخلية. وأن الأمة والكنيسة والمدينة أصدق وجودًا من الفرد. ومن ثم الفرد يضحي نفسه لأجل هذه الداتيات التي تعتبرها المادية الغليظة محض تجريدات.

ويلوح لي أن الحب أقوى مظهر لهذا القانون الداخلي للحياة وأسطع برهاناً عليه. والحب لا يمكن تفسيره إلا بأن شعور الذرات كائن من قبل. والفرد المراهق يحمل في نفسه ملايين المشاعر الغامضة التي تتطلب الوجود وتشرّب إليه. وقد منحت الإحساس الغامض بالأحوال اللازمة لنمائها وزيادتها والتي تجعل الفرد يقاسمها رغباتها ويشاطرها أحزانها. وأشد الناس تعلقاً بالفضيلة لا يستطيع أن يمنع هذه الخلائق الجنينية التي تعد بالملايين من أن تصيح في أعماقه صارخة (إنا نريد الحياة). وهؤلاء المخاليق الصغار - وأسميهم الرجال الموجودين بالقوة - متحدون بذاتنا ومكونون لجزء منا وينظرون بعيوننا ويشعرون بحواسنا ويكونون حكماً غريزياً عن الظروف التي يبرزون فيها من سجنهم ويقدمون إلى الحياة.

وهذا هو علة أن الحب ينفجر في نفوسنا على غير إرادتنا. وليس في طوقنا مقاومته وهو مبتوت الصلة بالإحساس الأدبي ، ولذا فإن معركة الحب والواجب إحدى المسائل الجوهرية في الفن السامي ، لأن هذه الخلائق الصغيرة لا تراعي الأخلاق ولم تقرأ ملتبس وهي لا تطمح إلا إلى الوجود التام الحافل ، وهي لا تتدخل في دقائقنا ولا تفهم وساوسنا الاجتماعية ولها آداب مستقلة عن آدابنا وقوانيننا ، ومن ثم الكفاح الناشب بين الفلسفة المجردة والتدقيق الساذج الذي تقدره هذه الجرائم الحية في داخلنا والتي هي جزء منا والتي متى أرادات شيئاً حملتنا على الرغبة فيه ، وبين الكائن المفكر الذي يتدبر نتائج عمله جنين الجنين الصغير الذي لا يعرف إلا الرغبة في الوجود ، وهذا هو علة أن الذي ينبه الغريزة الجنسية فينا أشخاص لا نراهم في الغالب أهلاً لتقديرنا ، لأن المخلوق الجنيني لا يراعي إلا ما يلائم وجوده ، وهذا هو منشأ المشكلات الاجتماعية التي لا تنقطع ، لأن الزواج يستلزم التقدير الأخلاقي والحب النوعي وهما حالتان قد يلتقيان وقد يكون من الطبيعي أيضاً أن لا يجتمعان ، وممكن أن نستنبط نفس هذه النتيجة - أي فردية الجرثومة - من قانون الوراثة والرجعي ، فإن نماء الجنين في أول أمره والطريقة التي يفتضها كل إنسان للحياة هي ثمرة عادات وتجارب اكتسبها أسلافه ، وكل كائن قد عاش في أجداده وخضع

لسلوكتهم ولبي رغبتهم وتأثر بالمشاعر الغالبة عليهم ، وأن حفيد العبد لا يزال محني الظهر خافض الرأس ، والعبد العتيق يحيد بطبيعته عن طريق من أخافوا أجداده ، والتواءات الغريزة الجنسية ليست سوى أخطاء الكائن الصغير المستسلم لدلائل واهمة في حالات لم يدخل فيها العقل ليحسم الخطأ ويضع الأمور في نصابها .

وإذا بدأنا من هذه الفكرة انتهينا إلى تصور شعور للإنسانية في المستقبل أسمى وأبعد أصعاً في الرقي مما هو موجود اليوم ، وستكون الإنسانية في ذلك الوقت مثل الدوحة الهائلة براعمها الأفراد قد اتحدت فيها المشاعر وتمازجت وتكون منها شعور شامل عام كما كان يقال عن الكنيسة في باكورة أمرها (المؤمنون قلب واحد وروح واحدة) والحكومة في العصر الحاضر تعطينا صورة مشابة لذلك لأنها توجد مثلاً أعلى للفن والعلم والخير وتنفق عليه من النقود التي جمعتها من دافعي الضرائب وجهرتهم من الماديين والملوكية ترينا القومية متمركزة في فرد أو إذا شئنا في أسرة كبيرة وهي تصل بذلك إلى أسمى درجات الشعور القومي إذ أنه لا شعور يعادل هذا الشعور المنبعث من الذهن مهما كان الذهن عامياً . والفروض التي نتصورها عن صور هذا الشعور الإلهي نتحصر في ثلاثة أشكال . الشكل الملكي . والشكل الأوليغراشي (حكومة الأشراف) والشكل الديمقراطي . وذلك حسب تصورنا الشعور العام متجمعاً في فرد قد استغرق الجميع . أو محصوراً في عدد قليل من الأفراد يحكمون سائر الناس . أو موزعاً في الجميع بطريق الرغبة والتصويت .

اتيفرون

هذا ما يترك الأبواب حائرة ، فاسترسل فنحن مصغون إليك .

تيوكتست

يظهر لي أن الحل الديمقراطي أبعداها عن التحقيق حسب نظام الأفكار الفلسفية التي يرونها الانغماس فيها ، وضعوا نصب عيونكم أننا على بعد ألف فرسخ من السياسة . ولكلماتنا هنا معانيها الواردة في تعاريفنا وتحديداتنا .

اتيفرون

هذا مفهوم

تيوكتست

ولا يمكن أن نتصور اعتناق البشر كافة للعقل ودخولهم في حظيرته جميعًا ، فإن الأكثرية الكبرى من الأذهان البشرية غير مستعدة لقبول الحقائق مهما قل نصيب هذه الحقائق من السموم. والنساء لم يخلقن لمعالجة مثل هذه الأمور فحسب بل أن الإقبال عليها يشغلنهن عن وظيفتهن الحقيقية وهي أن يكن خيرات أو جهيلات أو أن يجمعن بين الصفتين وكون الأمر كذلك ليس غلطتنا وليس غرض الطبيعة - ويلزم أن نعتقد ذلك - أن يعرف الناس كلهم الحق. وإنما غرضها أن يعرف الحق بعض الناس ، وأن تحفظه بعد ذلك الرواية والسنة.

والفكرة الديمقراطية في نظر رجال الدين منقوضة من أساسها. فإن صور الشعور مقدسة ولكنها ليست متساوية ، فأين نقف ونضع الحد ؟ أن للحيوان أيضًا حقوقه وهل للهمجي الاسترالي حقوق الإنسان أو حقوق الحيوان ؟

إن العمل على رفعة الناس قاطبة هو أول واجبات المجتمع. ولكن رفع الناس كلهم إلى مستوى واحد أمر مستحيل. ومادامت الدنيا كما هي فإننا لا نستطيع أن نزعم أن هذا يعود عليها بعميم الخير. لأن الرجل الذي تعلم في المدرسة ليس أسعد حالًا لذلك. وهذا الوشل من المعرفة التي اكتسبها يفقده نضارة الفطرة ولا يجنيه ثمرة التعليم العالي ، وإذا بسطت الثقافة الباهرة ظلها على فريق من الإنسانية فإن الفريق الآخر يخدمها ولا يأخذ إلا نصيب محدود منها ، وإنما المهم الجوهرى هو أن توطد الثقافة الباهرة مركزها وتجلس على عرض الدنيا بأن تجعل الأوساط التي قل نصيبها من التشقيف تشعر بتأثيرها المبارك ، وإذا تم ذلك فليس علينا أن ننقل على الآخرين ونرهقهم ونكرهم على أن يأتوا بأعمال اليقين ، وقد أخطأت الكنيسة في توهمها أنه من الصالح إرغام الناس على قبول صيغ لا يفهمونها ، وإنما سياسة العلم إذا استلم صولحان السيادة ستكون أشبه بسياسة الإسلام منها بسياسة المسيحية ، فإن المسيحية

عمدت إلى الاضطهاد لأنها كانت تعتقد أن اليقين الديني يؤثر على الشخص تأثيراً حسناً - ولو لم يفهمه - وينقذه وينجيه مثل الحبة التي يبتلعها دون أن يعرف محتوياتها ، والإسلام على عكس ذلك. فإنه قليلاً ما كان يرغم الذين انتصر عليهم على قبوله. بل لم يعلق أهمية كبرى على اعتناقهم له ولا نرى أية فائدة كبرى في أن ينتسب للعلم من لا يفهمه وبحسبه أن يخدمه وينحني أمام قوته التي لا نزاع فيها. وماذا يعني إذا كانت الملايين من المخلوقات المحدودة الفكر التي يكتظ بها هذا الكوكب تجهل الحق أو تنكره مادام العقلاء ينظرونه ويكبرونه ؟ ولماذا نضايق الغير بتفكيرات لم تخلق لهم ؟ أن نظريات ابل وكوشى لا تفقد شيئاً مما فيها من الحق ، لأن فهمها مقصور على مائة شخص ؛ وبكفي لأمثال هذه الحقائق العالية أن يراها عدد قليل من المفكرين وأن تسجل في الكتب ليعرفها من أراد معرفتها في أحد الأيام ؛ وأن العقل والعلم من إنتاجات الإنسانية ولكن أن نطلب العقل مباشرة لأجل الناس ومع الناس وهم من الأوهام وخيال باطل. وليس من الضروري لوجود الحق وجوداً كاملاً أن تدركه كل الناس ، وعلى أية الطرق فإن نشر مثل هذا التهذيب العقلي - إذا حدث يوماً ما - لا يتم على يد الديمقراطية الوضيعة ؛ وذلك لأنها - على العكس من ذلك - قد دُمحوا كل الثقافة العزيزة النيل وكل ضروب التهذيب العالي ، والمثل الأعلى للمجتمع الأمريكي هو أبعد المجتمعات عن المثل الأعلى للمجتمع الخاضع للعلم ، وفكرة أن المجتمع موجود لصالح الأفراد وحريرتهم لا تأتلف مع مقاصد الطبيعة التي لا تحفل إلا بالأنواع وتضحى بالفرد ، وإنه ليخشى كثيراً أن تكون الكلمة الأخيرة للديمقراطية - حسب هذا الفهم - (ولو أني أشعر بأنه يمكن فهمها بشكل آخر) - حالة اجتماعية متدهورة لا غرض للقوم فيها سوى الانغماس في الشهوات الوضيعة.

ايدوكس

حقيقة أنه ليس من الأمور الواضحة الواضوح كله لماذا خلق الله الدنيا لغاية حقيرة الشأن إلى هذا الحد ، ولكن ألم يكن الأحسن إقناع الإنسانية بدلاً من خداعها وإخضاعها ؟

تيوكتست

نعم ، ولكن بطريق غير مباشر ، وباليقين بلا مرية ، أما الإقناع المباشر بالبرهان الناصع فهو من المستحيل ، ولقد اهتمدنا إلى أفكار قليلة لم تسلّم من النقص عن هذه البحوث الغامضة واقتضانا ذلك حياة ملاءى بالتفكير ضحينا فيها بكل شيء وتركنا كل هم وألقينا عن كاهلنا كل مسئولية بل ربما واجباتنا أيضًا ، فكيف تروم أن تصير مثل هذه الأفكار شريعة الإنسانية العامة.

فيلاليت

هذا حق

تيوكتست

ومن ثم فكون الديمقراطية تحقق الله أمر قليل الاحتمال ؛ والديمقراطية الحزبية المتحاسدة هي تمامًا ما يصح أن نسميه الخطيئة الدينية بطبيعتها. وذلك لأن الغرض الذي تسعى إليه الدنيا وتكدح من أجله ليس هو إنزال القيم العالية بل هو يلزم أن يكون على العكس من ذلك - خلق الآلهة والكائنات الأسمى التي ستعبدتها سائر الخليقة وتخدمها وتجد لذتها في ذلك. والديمقراطية في هذا المعنى معارضة لفكرة الله. لأن الله لم يرد أن يعيش الناس كلهم عيشة روحية متساوية ونحن لا نتعصب للنظام القديم لأنه أحمّد حرية الفكر وأرهق في أغلب الأحيان العلماء. ولكن ديمقراطية بلا مثل أعلى لا تكون خيرًا لهم منه. أما في الحاضر فينبغي لنا أن نفضل الديمقراطية ، لأنها أقل منافرة لحركة تقدم الروح من النظام القديم. ولكن الاسترخاء الذي تحدّثه قد يكون وخيم العاقبة على مر الأيام. والإخلاص التام لازم للعلم. ولذا لا ينبغ العلماء الفحول في الأمم المنتكسة الأخلاق أو الأمم السطحية. والعالم ثمرة إنكار كنفس ومجهود صادق وتضحية جيلين أو ثلاثة. وهو يمثل اقتصادًا للبر في الحياة والقوة. ولا يمكن طائفة من العلماء أن تكمل صفوفها من داخلها. ويلزم أن يكون هناك شوائب لتخرج منها. والمسيح المخلص لا يظهر بين قوم عنانهم في يد الأنانية متهافتين على اللذات الوضيعة. ولا بد للمفكر أن يجد قومًا يقومون بنصبيّه من العمل

والكدح ولو لم يقدروا عمله ولم يفهموه. وهل أعدى للروح من هذه الديمقراطية التي لا تقدر سوى ما تستطيع فهمه أو بالأحرى ما تتصور أنها تفهمه ؟ والتعليم الابتدائي سيقبل من نكران النفس لأن هناك ما يبعث على الخوف من أن الذين تعلموا التعليم الابتدائي لا يميلون إلى الاشتراك في المحافظة على ثقافة أسمى من ثقافتهم. أي أنهم لا يرغبون في خلق أساتذة لهم.

وموجز القول أن غرض الإنسانية هو خلق العظماء. والعمل العظيم سميته العلم لا الديمقراطية ولا يمكن أن يتم شيء بغير العظماء ولا خلاص بغيرهم. وعمل المسيح - أو المخلص - إنما يضطلع بأعبائه الفرد لا الجماعة. وإننا نظلم الأمم التي لا تصنع سوى الأشياء الفاخرة - مثل فرنسا - والتي تنسج الحرير ولا تصنع الكتان العادي. وأمثال هذه الأمم هي التي تخدم الرقي أجر خدمة. والأمر الجوهري هو أن نتج عبقریات كبيرة أكثر من الجماعات المستنيرة وأن نخلق الوسط الذي يفهمها. وإذا كان جهل الجماعات شرطاً لازماً لهذا ازداد الطين بلة. والطبيعة لا تترث في سيرها تلقاء هذه الاعتبارات. وهي تضحي أنواعاً برمتها لأجل أن تجد الأنواع الأخرى الأحوال اللازمة لوجودها.

وعلاوة على ذلك فإن هذا النظام والتدبير الذي دبرته العناية ليس فيه ضحية فالجميع يخدمون غاية سامية. وفي القبضة من الحنطة التي ينثرها الزارع نثرًا فإنه حتى الحبوب الفاسدة لها نفعها وإذا كانت المسألة هنا مسألة السعادة الشخصية فاه ! أنا لا أدري من الذي حرم من ميراثه ؟ وأن كل إنسان سعيد في مكانه. وأهل الدنيا ورجاهم لهم آلاف المسرات التي ليست لنا. أنهم يتسلون ويلهون. ومن منا لم يخالجه الحسد عند مروره بجماعة من البسطاء ؟ ومن منا لم يستمع إلى أغانيهم الفرحة وقد أخذته الغيرة ؟

وهذا العالم السامي الذي نحلم به لتحقيق العقل الصافي لا يكون فيه نساء. فإن المرأة ستظل مكافأة الوضيع يجد فيها حافزًا للحياة. وهو في ذلك ليس أتعس الناس حالة ولا أضيعهم مكانة.

ايدوكس

عندما أصغى إليك أميل إلى أن أقول مع سترسياديس في ارسطوفانيز (أنك لن تقنعني ولو أنك تقنعني). ونحن حريصون الحرص كله على أن نعرف ماذا تقصده بقولك الحل الأوليجراشي لمسألة الوجود.

تيوكتست

هذا الحل أسهل تصورًا من الحل الديمقراطي. وهو يماشي أغراض الطبيعة الظاهرة فإن فريقًا مختارًا من الأذكياء في حوزتهم أهم أسرار الحقيقة سيحكمون الدنيا بالقوة المستخرة لهم ، وسيمدون سلطان العقل إلى أقصى حدوده الممكنة.

ايدوكس

لقد انتهى تيوفراست أمس إلى أفكار شبيهة بهذه الأفكار

تيوكتست

إن أمثال هذه الأفكار تطالنا من كل الجهات. والتوسع في فن الحرب سيجعل الحكومة العالمية ممكنة. وستكون هذه السلطة مستقرة بلا نزاع في يد من يملكون هذه المعدات الحربية والترقي في صناعة معدات الحرب سيؤدي إلى عكس الديمقراطية. وسيكون أداة مناعة وتحصين للقوة لا للجماعات ، لأن المعدات الحربية العلمية لا يستطيع استعمالها إلا الحكومات لا الناس. وفي العصور الوسطى ضمنت حيازة الخيل العتاق وجيد الأسلحة التفوق المطلق للأشراف على الدهماء مدة قرون. ولقد أباد سبعة وعشرون فارسًا جمعًا برمته من الفلاحين الثوار عند قنطرة السوق في (ميو) في يوم واحد. وقد كان نفع البارود في أول أمره وقفًا على أغراض الملكية. وفي المستقبل ستوجد آلات تكون عديمة الفائدة في غير أيدي العلماء الخبيرين باستعمالها. ومن هنا يمكننا أن نتصور الوقت الذي ستبسط فيه فئة من الرجال سلطتها على سائر الناس دون أن ينازعها أحد سلطانها وستوجد إذ ذاك في عالم الحقيقة هذه القوة التي كان يعزوها خيال الناس للسحرة. وستتحقق إذن فكرة السلطة الروحية تلك السلطة القائمة على أساس التفوق الفكري. ولقد حكمت البرهمية مدة قرون بفضل إيقاعها في روع الناس أن البرهمي يستطيع بنظرة أن يصعق

من يشير عضبه. وهذا الاعتقاد لقيامه على الخطأ والباطل لا يصلح ليكون أساساً مستوثقاً. ولكن العلم قد يصل في أحد الأيام إلى قوة مشابهة لهذه القوة غير مشوبة بالباطل. وسيكون تفوق الوسائل التي بيده من القوة والفخامة بحيث لا تقوم ضده أية ثورة. ولقد كان للعقائد المسيحية مدة قرون القدرة على تحريق منكريها. فكذلك العلم سيبيد مباشرة من لا يدين بعقائده. ولقد حاولت الكنيسة في العصور الوسطى أن تحقق القوة الروحية. ولكن لم يكن في يدها القوة الكافية. ولذا ظلت ضعيفة مكرهة على الاستعانة بلا انقطاع بالقوة الدنيوية التي كانت تملي عليها شروطها وتتطلب نظير ذلك إنقاص الحقوق الاكليروسية. والقوة الروحية لا تكون قوية منيعة الجانب إلا إذا كانت مسلحة وفي يدها قوة مادية لا تخضع إلا لها. أي قوة لقهـر أعدائها وتخـيـد شوكتهم مثل القوة الوهمية التي كان يملكها البرهـمـي بالخوف الذي تـوحيـه نظراته.

ولقد كان في يد الكنيسة عوضاً عن الجيوش الرهيبة الخوف من النار. وقد كان سلاحاً فعالاً في عصور اليقين والإيمان. وبهذه الوسيلة بسطت سلطانها على البرابرة الذين استتفروهم بعد ذلك لتنفيذ أوامرها واكتسبت لنفسها مكانة عالية. ولكن هذه الحماية فقدت كثيراً من قوتها عندما صار الناس لا يخافون كثيراً من النار، كما فقد البرهـمـي نفوذه لما صارت الناس لا تصدق بنظراته الغاضبة. ولا بأس في أن أقول أني في بعض الأحيان أحلم حلمًا سيئاً فأتوهم أن هناك سلطة سيكون الجحيم تحت نفوذها. الجحيم الحقيقي لا الجحيم الوهمي الذي لم يـقـم دليل قط على وجوده.

أيدوكس

في أي كابوس مفزع استسلمت لهذه الفكرة

تيوكتست

هل هي أشد هولاً مما نراه بأعيننا ؟ واستحالة الحرب إلى خوف زاجر وتحريق الأسرى لا لأنهم ارتكبوا جرماً وإنما لإيقاع الخوف في قلوب الناس ومنعهم من الدفاع عن أنفسهم - تلك النظرية التي أهملت من عهد (لوفوا) - تعلن الآن بصراحة ويعترف

بها. وتقول هذه النظرية أن القسوة قوة وأن لها في الشئون البشرية مزية لا يمكن الاستهانة بها. وجهنم الكاملة من هذه الوجهة تعادل كتيبة من الكتائب لأنها تثير نفس الخوف. ولقد عرف ذلك دوق ألفا. وعرفه أيضًا أجا توكل والقرطاجيون الذين كانت القسوة جزءاً من سياستهم. وإذا تدبرنا الأمور وجدنا أن القوة الموقوفة تحت تصرف الناس ليس سوى الخوف الذي يثرونه. وهذا الخوف قد ينشأ من وعيد حقيقي أو خيالي فالقوة والمخادعة من هذه الوجهة نظيران. إحداهما تقوم مقام الأخرى ولا تحتاج إليها ولقد أوقف قساوسة الغال نهب قبائل الفرنك وقتلهم الناس إيقافاً فعلاً بإيقاعهم في إخلادهم الخوف من القديس مرتين. ولكن الخرافات - على النقيض من ذلك - لا تجدي نفعاً إزاء جنكيز خان أو تيمورلنك.

ايدوكس

من خط الرأى أن تطلق العنان لأفكارك وتدعها تسرح في هذه المسالك الوبيلة. ألا ترى أن الحاسة الأخلاقية المتأصلة في الإنسان تجعل أمثال هذه الفظائع المنكرة أمراً مستحيلاً وأن المردة التي تصفها لا تجد لها معدات ؟

تيوكتست

لا تخرجني وإلا شرحت لك فرضاً يجعل كابوس أحلامي أمراً محتمل الوقوع. أني لم أقل قط أن المستقبل مفتر المباسم. ومن يدري أن الحقيقة ليست محزنة ؟ والقوة لم تحتفظ بنفوذها على البشرية إلا بالحيلة التي اصطنعها هؤلاء الذين في يدهم زمامها في جعل هجاجات الجماهير آلات عمياء مسخرة لأغراضهم. والمستبدون ذوو الأغراض المادية الذين تحدث عنهم ما كانوا ليرددوا لحظة في أن يحتفظوا بنواة من الباشك أو الكالماكس في إحدى مجاهل آسيا ويحرصوا عليها لتكون آلات خاضعة لهم الخضوع كله ، فلا تحجم عن ارتكاب كل ضروب القسوة ولا تعوقها الوسواس الأدبية. ولا تنس علاوة على ذلك أني افترض تقدماً ورقياً عظيماً للشعور الإنساني وتحقيقاً للحق والعدالة على صورة لم يعهدها الناس من قبل. وأنا أفترض (وأظن أني على حق في هذا) أن هذا التقدم يتم على يد استوقراطية في طليعة الإنسانية. وتكون

هي مستودع عقل الجماعات. ومن الواضح أن حكم قسم من الإنسانية لقسم آخر منها حكماً مطلقاً أمر مكروه مستنكر ، إذا افترضنا أن الفئة الحاكمة لا تحركها سوى المآرب الشخصية أو الأنانية الحزبية. وإنما الأرسوقراطية التي أحلم بها سيتمثل فيها العقل وستكون بابوية لا يأتيها الباطل ولا يعرض لها الخطأ. وستكون القوة في يدها قوة تدر الخير. ولا حاجة إلا المساومة مع مثل هذه الأرسوقراطية. وستكون هي القوة التي لها الحق بطبيعة الحال. إذ أنها ستدعم آراءها الحقبة بالخوف الحقيقية. والبرهني لم يصعق أحداً ولقد أقام مذهبه الباطل على خوف لا أساس له. ولكن الكائن الذي في يده العلم سيوقف لخدمة الحقيقة خوفاً غير محدود وستصير المخاوف باطلة النفع ، لأن سواد الإنسانية - بمقتضى هذا الفرض - ستملك عليه هذه الحقيقة مذهبها فتبطل نفس فكرة الثورة وسيصير الحق يوماً هو (القوة) وإن قولهم المعرفة قوة هي أجمل ما قيل. وسيبصر الجاهل آياتها فيؤمن. وستدل النظرية على نفسها بتطبيقاتها العملية وأن النظرية التي تبرز آلات رهيبية غالبة للجميع كاسرة لشوكتهم لتثبت صدقها بطريقة غير قابلة للنقض. وستكون قوة الإنسانية محصورة في يد عدد جد قليل وستصير في حوزة عصبة قادرة مسيطرة على حياة الكوكب. وهي تخيف بذلك الدنيا بأسرها. وفي اليوم الذي يملك فيه المحبون بفضيلة العقل الوسيلة للقضاء على هذا الكوكب تستقر فيه سيادتهم. وهؤلاء الأشخاص الموهوبون سيحكمون بطريق بث الخوف المطلق لأن حياة الجميع في قبضة يدهم. ونستطيع أن نقول بأنهم سيكونون آلهة. والعصر الديني للإنسانية الأولى الذي حلم به الشعراء سيصير حقيقة. ولقد كان الخوف هو أول باعث على خلق الآلهة في الدنيا.

ومن ثم نستطيع أن نتصور عصرًا تؤسس فيه القوة حكم العقل ، دون الركون إلى الأكاذيب. فإن الكذب سلاح العاجز يصطنعه في مكان القوة. وستصير عبادة العقل حقيقة ، لأن من يعمل على مقاومتها - أي من لا يعترف بحكم العقل - سيقضي نحبه في التو واللحظة ، وأي حماقة صبيانية كان هذا الاحتفال بالعقل المكون جيشه من قوم غير حصفاء نصيبهم من العقل طفيف وثباتهم ضعيف وجل سلاحهم الحراب

وردئ البندقيات ! وعندما يصير العقل مكتمل القوة سيغدو هو الآلهة الحقّة ، ولا يكون من الضروري إذ ذاك أن نتحدث عن السلطة. فإنه ليس لهذه الكلمة من معنى الآن سوى الدلالة على قوة الرأي وهي قوة غير فعالة ، بل هي مجرد ألعوبة لفظية ، وستبلغ قوة العقل حينذاك أمسى درجتها لأن كل من ينكرها يقضي عليه بالموت الوحي ، وستكون وسائل المقاومة غير مجدية ، لأن هذا سيكون تحقيقاً لما كان يتخيله الناس من قبل انتقام الآلهة ، بل أن الحقيقة ستفوق الخرافة لأن انتقام الآلهة كان بطيئاً غير مؤكد ولا تام وكما نعرف الآن - خلوا من الصدق ، في حين أن الدلائل على صدق القانون العلمي ستكون غير قابلة للخطأ وسريعة حاسمة وستكون مثل الطبيعة نفسها لا نقض لإبرامها.

ايدوكس

أريد أن أحدثك عن اعتراض واحد بين آلاف الاعتراضات التي يمكن أو أوجهها إليك. إنك تفترض تقدماً عظيماً للعلم وأنت على حق في ذلك ، ولكنك لم تتحدث عن حالة الإنسان المفكر. وأن ترقى العلم والقوة الذي وصفته ليفوق ما في طوق العقل البشري. وهناك تناقض بين انتصارات العقل التي تتصورها وبين الاستعدادات الفكرية والعضوية المحصورة على الدوام.

تيوكتست

لقد قلت لك أن الأفكار التي أعالجها الآن لا تنتسب كل الانتساب إلى كوكبنا الأرضي والواجب أن نعرف أن مثل هذه الأفكار ترمي إلى ما هو أسمى من الإنسانية ، ولا شك في أن الشخص المفكر العارف سيكون أبداً محدوداً ، ولكن المعرفة والقدرة غير محدودتين ، ومن ثم تستطيع الطبيعة المفكرة مضاعفة قوتها دون أن تتخطى حدود البيولوجيا ، وأن التطبيق الشامل لمستكشافات الفسيولوجيا ولنظرية الانتخاب يمكن أن تؤدي إلى خلق شعب سام يكون له حق الحكم لا عن طريق العلم فقط ، بل بنفس التفوق في الدم وفي الذهن والأعصاب ، وستوجد حينذاك مخلوقات تعادل قيمتها عشرة أضعاف قيمتنا. وتستطيع أن تعيش في وسط صناعي ، والطبيعة

تصنع الشيء ليعيش في الأحوال العامة ولكن العلم يمكنه أن يمد حدود القابلية للحياة ، ولقد عملت الطبيعة إلى هنا كل ما تستطيعه ، وقواتها المرسله على سجيته لا تتجاوز هذا الحد الذي بلغته ؛ وعلى العلم أن يتولى العمل حيث تركته الطبيعة ، والعالم النباقي يحفظ بالطرق الصناعية خضروات سرعان ما تختفي إذا لم تتعهد لها يد الإنسان ، ومن الممكن أن نتصور عصرًا يقوم فيه إيجاد الآلهة بمبلغ محدود يشمل ثمن الجهاز النفيس والجهود البطيء والانتخابات الشاقة والتربية المعقدة وصيانة مثل هذا المخلوق ضد الطبيعة ، وقد ينشأ مصنع لعمل الآلهة في وسط آسيا ، وإذا كان أحد من الناس يمقت هذا النوع من الأساطير فلينظر إلى تصرف النمل والنحل في تحديد الوظائف التي يوقف كل فرد منها لها حياته ، ولينظر إلى الوسائل التي يصل بها النباقي إلى خلق النواذر الصناعية ؛ وسر هذه الشواذ في التغذية أو بالأحرى في إنماء عضو من الأعضاء بتعطيل عضو آخر ، ولندكر هنا هذا الأستاذ الفيدي الذي اسمه - حسب ما يقول برنوف - (من ذهبت مادته المانوية إلى رأسه) ، وكما أننا نحصل على الزهرة المضاعفة بالزيادة في التغذية أو بنقل أعضاء التناسل إذ أن التزهير والإثمار يستنفدان الحيوية فكذلك قد توجد يومًا الوسائل لحصر كل قوة الأعصاب في الذهن بإيقاف الطرف الآخر وتعطيله إذا ساع لنا القول ، وهذه الوظائف يضعف بعضها البعض. لأن الممنوع لواحدة منتزع من الأخرى ، ولا حاجة للشك في أننا لا نتحدث هنا عن هذا البتر المخجل الذي لا ينشأ عنه سوى مخلوقات ناقصة ، وإنما نتحدث هنا عن نقل داخلي نستطيع به أن نوجه إلا غاية واحدة القوى التي صرفتها الطبيعة في شئون مختلفة.

ويمكننا أن نتصور (خارج هذا الكوكب من غير شك) إمكان وجود كائنات بينها وبين الإنسان من البون مثلما بينه وبين الحيوان ، وعصرًا يتبدل فيه العلم من الحيوانات الموجودة بأخرى أرقى منها كما استعاضت الكيمياء عن طائفة من محصولات الطبيعة بطائفة أخرى أكمل منها ، وستخرج الآلهة من الإنسانية كما خرجت الإنسانية من الحيوانية ، وستوجد كائنات تستخدم الإنسان كما يستخدم

هو الحيوان ، وقليلًا ما يستوقف فكر الإنسان أن خطوة واحدة منه ومجرد حركة تسحق عشرات الآلاف من الدويبات ؛ ولكنني أكرر أن التفوق العقلي يستصحب التفوق الديني ، وسيتمثل في سادة المستقبل الحق والصلاح وسيكون في الخضوع لهم سرورًا أيما سرور .

وأن مسألة عدم تساوي الشعوب وصحة الحقوق التي يخولها التفوق الشعبي هي أشد ما تنكره الديمقراطية ، والديمقراطية لا تعمل على إعلاء الشعب وإنما ترمي إلى الإسفاف به وهي لا تريد العظماء ، ولو كان حاضر أمرنا ديمقراطي وسك مسمعه حديثنا واهتمامنا بتلقي الوسائل لخلق سراة للناس لعرته الدهشة ، والحقيقة أنه من السخف والجوران ترغم الناس بنوع من الحق الإلهي على قبول سادة ليسوا أسمى منهم في الكثير ولا في القليل ، وإشراف الوقت الحاضر في فرنسا لا شأن لهم ولا خطر لأنه ثلاثة أرباع ألقاب الشرف مغتصب ، والرابع الباقي - إذا استثنينا منه ما يكاد يقرب من العشرة - مستمد من الإنعامات الملكية لا من الفتح ، فهي لا تدل على شيء من التفوق الشعبي كما هو الأصل في النظام الأرستقراطي ، ولكن هذا التفوق الشعبي يمكن أن يصير حقيقيًا ، وتكون إذن الأرستقراطية حقيقة علمية صادقة غير منكورة مثل تفوق المتمدنين على الهمجي المتوحش أو مثل تفوق الإنسان بوجه عام على الحيوان .

وعلى هذا النسق يمكن أن نتصور عصرًا قد صارت فيه كل سلطة كانت قائمة قديمًا على الوهم والرأي الواهي متينة الأساس صادقة ، ووجود الإنسان والعقل سينفخ حياة جديدة في الآلهة والجنة والنار والقوة الروحية والملوكية والأرستقراطية وحق التفوق الشعبي وقوات ما فوق الطبيعة ، ولو تحقق مثل هذا الحل إلى أي حد على وجه الأرض لكانت ألمانيا هي التي تحققه حسب ما يظهر لي .

ايدوكس

أتقصد بذلك الأطراء أم النقد ؟

تيوكتست

فسره حسبما تشاء ، إن فرنسا دائماً تميل إلى الحلول الحرة الديمقراطية ، وهذا هو مفخارها ، ومثلها الأعلى هو سعادة الناس وحريتهم ، فإذا كانت خاتمة الأشياء هي أن يستمتع الأفراد في هدوء بحياتهم المحدودة - وهو أمر محتمل بعد كل شيء - فإن فرنسا الحرة إذن على حق. ولكنها ليست البلاد التي يتم فيها التوازن والانسجام أو إخضاع الشعور العام الذي تحدثنا عنه. وأما إذا جاء الأمر على عكس ذلك وكان للعقل أن يحكم الدنيا فسيكون ذلك أكثر ملاءمة لعبقرية ألمانيا التي تبدي اهتماماً قليلاً بالمساواة وبقية الفرد والتي ترمي إلى إنماء قوى الشعب الفكرية قبل كل شيء.

اتيفرون

لقد غاب عنك أن في عصر الآلهة المتباعدة سيكون قد انقضى منذ زمان بعيد الفرنسيون والسلاف والجرمان. وستكون هذه التنوعات الإقليمية الحقة قد محيت من ذاكرة التاريخ نفسه.

تيوكتست

أريد أن أكون من الإنسانية الموحدة صورة موجزة للمعارك العظيمة التي ستقع في المستقبل.

ايدوكس

ولكن ألا ترى إلى أن الناس سيشعرون باستفحال أمر سيدهم ويصرون الخطر الذي يتهددهم ويأخذون حذرهم.

تيوكتست

لا يخامرني الريب في ذلك ، وإذا كان لهذه الأفكار التي تتبع ظلماً أن تتحقق يوماً فستحقيق بالعلم ضروب من الاضطهادات. وبخاصة الفسيولوجيا والكيمياء وستكون هذه الاضطهادات من الشدة ، بحيث يصغر إلى جانبها أمر مجلس التفتيش ، وسيناصبها العداء جمهور البسطاء السذج يحذوهم على ذلك غريزة عميقة ؛ وسيعود العلم من جديد إلى اللواذ بالمخايب والأكنان ؛ وقد يأتي على الإنسانية عصر يعرض فيه كتاب في الكيمياء صاحبه للخطر كما كان في العصور الوسطى ، وأشد

اللحظات خطر في حياة كوكب من الكواكب هي اللحظة التي يرفع فيها العلم النقاب عن آماله ، وستنبعث إذ ذاك مخاوف وتنفجر ثورات هادمة للعقل وربما قد أدرك البوار في مثل هذا المأزق الضنك آلاف الإنسانيات ؛ ولكن لابد أن تخرج إنسانية واحدة سالمة من هذه الغمرة وبذلك ينتصر العقل .

والحاجة في هذه الحالة هي أحسن الضمانات ؛ والإنسان لا يمكنه أن يستغنى عن العلم ؛ ففي العصور المنحطة - مثلاً في العصور الوسطى - كان الطب هو نصير الروح العقلية ؛ لأن المريض يريد الشفاء بأي ثمن ؛ ولا يتيسر أن يتم شفاؤه بدون قليل من العلم ، أما في الوقت الحاضر فإن الحرب والآلات والصناعة تستلزم العلم إلى حد أن الأشخاص الذين يعملون على مقاومة الروح العلمية يضطرون إلى تعلم الرياضة والطبيعات والكيمياء ؛ فالعلم يبسط سيادته حتى على أعدائه .

أيدوكس

إن افتراضك انتصار الحكم الأوليجراشي للعقل يجعلك تتصور صوراً سوداء ؛ ولماذا لا ترى أن قدوم إنسانية أسمى يعود بالنفع على الجميع ، وأن نفس هذا التفوق ناشئ من أن المزايا أقل توزعاً مما هي في هذه الدنيا المحزنة؛ لأن الإنسانية قد تجمعت برمتها وتقدست في طراز فذ فاخر ؟ ولكن سأنتظر بفارغ الصبر لأسمع ما تقوله عن تصورك لمستقبل العالم إلى الملكي وآمل أن يكون أكثر عزاء للإنسان لأني أشعر بأني في حاجة أب سماوي لينقذني من جحيمك .

تيوكتست

ما أجهل قول القديس بولس (قد يكون الله هو الكل في الكل) وأبدع منه قول زينوفون قبله بستمائة سنة (أنه يرى كالجميع ويفكر مثلهم ويسمع ما يسمعون) ومثل هذه الصيغة لم تتحقق في العصر الحاضر ، ولكن الحل التوحيدي الذي يكون فيه الكون بخذافيه مشاعر كائن واحد وإحساساته وملذاته سوف لا يكون مستحيلًا إذا راعينا لانهاية المستقبل ، وقد مثلت لنا فرنسا في عصر لويز الرابع عشر صورة مملكة كل جهودها متجهة إلى إخراج حياة ألاقه فاخرة مكتملة النواحي هي حياة

الملك ، وكانت كل الوظائف الاجتماعية منظمة تنظيمًا قدر وعي فيه فخار الملك ولذاته ، ونستطيع أن نتصور حالة للدنيا ينتهي كل شيء فيها إلى مركز شاعر بنفسه وينحصر الوجود في موجود مفرد يتحقق به تصور الوجدانية الذاتية ؛ وقد تكون نهاية التطور الإلهي هذا الموجود العالم بكل شيء والقادر على كل شيء سواء تصورناه ينعم بالجميع (والجميع أيضاً ينعمون به) ، كما يتصوره متصوفة المسيحيين أو تصورناه فردية قد اعتلت ذروة القوة أو تصورناه خلاصة آلاف الملايين من الكائنات والتوازن والمحصل النهائي للكون.

وهكذا يبلغ الكون الكمال في فرد قد تلاقت في لانهائية ملايين لا تحصى من الحيات: حيوات الذاهبين والحاضرين ، والطبيعة الحية بكليتها ستتضافر في خلق حياة متمركزة هي ترنيمة مؤتلفة من آلاف الملايين من الأصوات مثل الحيوان الناشئ من ملايين الخلايا العضوية ، ومثل الشجرة المكونة من ملايين البراعم ، وسيكون هذا الشعور الأوحدي من عمل الجميع والكل سيأخذون بنصيبهم منه ، وسيكون الكون مثل كثير الأرجل اللانهائي قد التحمت فيه كل الكائنات التي وجدت ، وكل واحد منها يحيا لنفسه وللجميع معاً.

ونحن الآن نشارك في حياة الكون (وهي حياة لم تبلغ الكمال بعد) من طريق الآداب والعلم والفن ، والأديان هي الصورة المختصرة العامة لهذه المشاركة ، وهذا هو سر قداستها ؛ ولكن الطبيعة نزاعة إلى تألف أمتن ، وهذا التألف لا يبلغ غايته إلا عندما يجيء هذا الكائن الكامل ، وهذا الكائن لم يوجد بعد لأن لنا ثلاثة طرق للتأكد من وجود الكائن ، وهي إما أن ننظره أو نسمع الناس تتحدث عنه أو أن نشاهد أعماله ، ولم يعرف كائن كالذي نتحدث عنه بإحدى هذه الطرق الثلاثة ؛ ولكننا نستطيع أن نتصور إمكان وجود حالة يعيش فيها كل شيء في لانهائية المكان ، أما في العصر الحاضر فإن جزءاً قليلاً من المادة قد انتظم تركيبه وتكاملت عضويته وحتى هذا الذي كمل تركيبه قد تماسك تماسكاً واهياً ، ولكننا يمكننا أن نتصور عصرًا قد تكامل فيه تركيب كل المادة وتم تماسكها والتحمت فيه آلاف الشمس وتضامت

فتكون منها كائن أوحد يشعر وينعم ويلتهم بلهواته الحارة الملتهبة نهرًا من المسرات والمتع التي قد تتدفق منه شؤوبًا من الحياة. ومثل هذا الكون الحلي سيمثل طرفي وجود كل تركيب عضوي. وهما الطرف الذي يفكر والطرف الذي ينعم. أما الآن فإن الكون يفكر وينعم خلال ملايين الأفراد ؛ ولكن سيجيء يوم في المستقبل يتدوق فيه بشهية فم ضخم اللانهائي ، وسيتدفق إليه محطة من السرور المكسر ؛ وسيندفع إلى الأبدية إلى حياة لا نفاذ لها غير شاعرة بالراحة ولا بالكالال؛ ولتجميد هذه المادة الإلهية قد تؤخذ الأرض وتخص كالدر الذي يعجنه الناس دون أن يفكروا في النملة أو الدودة المختبئة به ، وكذا الأمور ؛ ونحن نفعل نفس هذا الفعل ، وغرض الطبيعة في كل خطوة من خطواتها هو أن تنال غاية أسمى بتضحية الفرديات الدينية ؛ وهل يعبأ القائد أو رئيس الحكومة بحياة المساكين الذين يضحي بهم ؟

وأن وجود كائن فرد قد اجتمعت فيه كل مناعم الكون يشد أزره عدد لا نهائي من الأفراد تستشعر السرور في ذلك. أقول أن وجود مثل هذا الكائن لا ينافر سوى فرديتنا السطحية. وليست الدنيا سوى سلسلة من الضحايا البشرية ويمكن تلطيف ألم التضحية بالسرور والاستسلام. ولقد كان أصحاب الإسكندر يعيشون على الإسكندر وينعمون بالإسكندر. وقد مرت بالاجتماع أحوال كانت تنعم الناس فيها بلذات أشرفهم ، ويجدون فيها سرورهم ويقولون (امراؤنا) ويجعلون مجد أمرائهم مجداً لهم ، وأن الحيوانات التي يتغذى بها الرجل العبقري أو الرجل الفاضل ينبغي لها أن تكون مغتبطة فرحة إذا علمت الخدمة التي تؤديها. والأمور بخواتيمها فإذا صار من الضروري في أحد الأيام الإكثار من عمليات تشريح الأحياء لاستكشاف أسرار الطبيعة الحية العظيمة فإني أتخيل مخلوقات آتية مكلفة بالأزهار لتقدم نفسها وقد أخذتها نشوة التضحية وبذل النفس. وإن قتل ذبابة بلا فائدة عمل حقيق باللوم. ولكن الذي يضحي لغايات مثالية ليس له حق في الشكوى ومصيره إزاء اللانهائي جدير بأن يحسد عليه. والكثيرون يقضون نحبهم دون أن يتركوا أثراً في تشييد برج الأبدى. وأن تضحية كائن حي من أجل أنانية آخر لعمل مستنكر. ولكن تضحية

كائن حي لغاية تريدها الطبيعة تضحية عادلة ، وإذا توخينا الدقة فإن الرجل الواقع في قبضة الأنانية يأتي عملاً وحشياً بأكله اللحم ؛ وإنما الرجل الذي يبذل قصارى جهده في الخير والحق هو الذي يملك هذا الحق ، لأن التضحية هنا مبذولة للمثل الأعلى ؛ والكائن المضحي به له مكانه الصغير في العمل الخالد الباقي وهذه مرتبة يقصر عن نيلها الكثيرون ؛ وقد كان السلف الصالح يعتبرون ذبح حيوان للأكل والتغذية عملاً دينياً ، ومثل هذا الذبح الذي تدفعنا إليه ضرورة مطلقة كان في رأيهم ينبغي أن يستر أمره ويغطي على حقيقته بباقات الأزاهير والاحتفال الديني.

ويجب أن نفكر الأكثرية وتستمتع بالحياة بطريق الإنابة والتفويض ؛ وأن فكرة العصور الوسطى في صلاة الناس لمن لا وقت عندهم للصلاة لفكرة عادلة موفقة ؛ لأن الأكثرية منهمكة في العمل والأقلية تؤدي عنها تكاليف للحياة السامية ؛ وهكذا الإنسانية ولقد كانت نتيجة العمل الغامض الذي قام به آلاف المزارعين من خدمة دير من الأديار معبداً صغيراً على الطراز القوطي وسط واد جميل تظله أشجار الحور الفارعة يقيممه الاتقياء البررة ست أو ثماني مرات في اليوم ليتغنوا أناشيد الأبدى ؛ وكان هذا أسلوباً بديعاً في العبادة ولاسيما عندما كان بين المنتسكين مثل القديس برنارد وروبير دي توي والأب يوا كيم ، وقد كان هذا الوادي وتلك الأمواه وهاتيك الأشجار والصخور تود أن تهتف باسم الله ولكنها كانت خرساء فمنحها الدير مقولاً ؛ أما اليونان وهم شعب أعرق في النبل فقد كانوا أبلغ أداء لذلك وأفصح عنه تعبيراً بالقيثارة وألعاب الرعاة ، وسيكون ذلك أسمى في أحد الأيام عندما يخلف الدير معمل كيمياء أو طبيعة ، ولكن في أيامنا هذه فإن آلاف المزارعين الذين كانوا في الأيام السالفة عبيداً ونالوا حريتهم قد انطلقوا من أجل ذلك إلى المناعم المقيمة دون أن يخدموا المثل الأعلى في نفس الأرض التي أقيم فيها المعبد السالف الذكر ، ولا يطهرهم قليلاً سوى الضريبة المفروضة على الأرض ، لأنهما تجعلهم ينصرون غرضاً أسمى.

ولابد أن يعيش البعض للكل. ولو غير ذلك لأقفرت الدنيا من الناس ، والمصري من رعايا الملك شفرم الذي جاد بروحه وهو يبني الأهرامات قد قضى حياة أفضل من الذي أمضى حياته سدى تحت أشجار نخيله ، وهذا هو أساس مجد الناس وهم لا يتطلبون غيره ، والأناية لا تقنعهم أبداً ، وجل غرضهم أن يجتني غيرهم الثمرة إذا حرموا هم من اجتنائها وهم يقدمون على الموت راضين لأجل مجد رئيسهم. أي شيء لا يعود عليهم بالنفع المباشر. وإنما أتكلم هنا عن الناس بمعنى الكلمة أي عن الشعب غير المفكر المستسلم لغرائزه والذي لم يعلمه التفكير بعد أن أكبر حماقة يمكن ارتكابها هي أن يعرض الإنسان نفسه للقتل لأية غاية كائنة ما كانت.

وأني في بعض الأحيان أتصور أن الله هو العيد الداخلي العظيم للكون ، وأنه ذلك الشعور المترامي الفياض الذي تنعكس فيه كل الأشياء ويتجاوب صداها. وكل طبقة من المجتمع إنما هي دواليب وذراع رافعة في هذه الآلة الضخمة. ومن ثم كان لكل إنسان فضائله ونحن كلنا وظائف للكون. والواجب هو أن يقوم كل منا بعمله خير قيام. وأن فضيلة الشعبي لا يجب أن تكون هي فضيلة النبيل. وما يكمل به السيد الماجد قد يكون نقصاً وعاباً في الرجل من دهماء الشعب. وفضيلة كل طبقة قد فرضتها مستلزمات الطبيعة. والحكومة التي لا توجد فيها طبقات اجتماعية إنما هي خارجة على العناية. ولا يعنيها فتيلاً أن القديس فنسنت دي بول لم يكن كبير الروح وما كانت استقامة السلوك لترفع من شأن رافائيل. والقوة القدسية المستقرة في الجميع تتجلى في أهل الصلاح والاستقامة وفي الفنانين والعلماء. ولكل دوره الذي يلعبه. ولقد كان واجب جيتي أن يكون أنانياً لأجل عمله. وأن لا أدبية الفنان السامية هي نفسها ضرب من ضروب الفضيلة السامية إذا كانت تساعد على إنجاز مهمته الإلهية الخاصة الموكولة إلى كل إنسان في هذه الدنيا.

أما أنا فإني أتذوق الوجود قاطبة بمثل هذا الشعور العام الذي يجعلنا مثقلين بالحزن في المدينة الحزينة ومنشرحي الصدر في المدينة الفرحة ، وأنا بذلك أقاسم الشهواني شهواته والخليع المتنعم خلاعاته والديوي دنيويته ، وأشارك الرجل الفاضل في

طهارته والعامل في تأملاته والناسك في شدته وصرامته ، ويخالجني نوع من العطف الرقيق المستعذب فخالني شعورهم ، وإن استكشافات العالم ملكي ونصبي ، وانتصارات الطموح عيد لي ، وسيغمري الحزن إذا شعرت الدنيا بأي نقص وحاجة لأني شاعر بكل ما فيها ، وهمي الوحيد هو أن الجيل الحاضر من الانحطاط بحيث لا يعرف كيف يستمتع ، ومن ثم ألوذ بالماضي - بالقرن السادس عشر والعصور القديمة فكل ما كان جميلاً محبباً عادلاً نبيلًا هو جنة لي. وأنا بهذه الفكرة أتحدى الكوارث أن تلم بساحتي. وأنا أحمل معي الحديقة الساحرة من أفانين أفكاري.

فيلايت

لقد حاولت أن تظهر الصور التي يمكن أن نتصورها عن شعور عام للكون أسمى من الشعور الذي تمثله الإنسانية. وقد قيل لي أنك تعرف طريقة تجعل خلود الأفراد أمرًا ممكن تصورهم.

تيوكتست

الأحسن من ذلك أن تقول (بعث الأفراد) وأنا في هذا الصدد أخالف تصورات برعت فيها العبقرية اليونانية. وإن كانت هذه التصورات رائعة من ناحية الشعر والمثل الأعلى. وفي اعتقادي أن أفلاطون لا يلتفت إلى رأيه عندما يذهب إلى أن الموت خير وأنه الحالة الفلسفية بطبيعته ، وليس في الحق ما قاله في (فيدون) أن كمال الروح هو في الانفلات أشد ما يمكن من البدن ، والروح بدون جسم وهم وخيال لأننا لم نر قط هذا الطراز من الوجود.

نعم إنني أتصور إمكان البعث ، وأنا أقول على الدوام مع أيوب (أن هذا الأمل كامن في صدري) وإذا حدث في آخر أدوار التطورات المتعاقبة أن جمع العالم في واحد صمد ، فإن هذا الكائن سيكون هو الحياة الكاملة للجميع وسيبتعث في نفسه حياة الكائنات الذاهبة ، أو إذا كنت تؤثر ذلك - إن كل ما وجد سيعيش في صدره ، وعندما يجمع الله بين الكمال والقدرة الغامرة ، أي عندما تجتمع القدرة على كل شيء العلمية في يد كائن خير مستقيم فإن هذا الكائن ستتجه رغبته إلى إحياء الماضي

ليمحو ما به من مظالم ، والله سيوجد ، وسيزداد وجوده تحقيقاً واستقراراً ، وكلمما عظم نصيبه من الوجود ازدادت عدالته ، وسيلبغ ذروة الكمال في اليوم الذي يشعر فيه كل من أعان على إتمام العمل المقدس أنه تم ويرى الجزء الذي أتمه منه ، وحينذاك ستظل عدم المساواة الأبدية للكائنات محتوماً عليها إلى الأبد. فمن لم ينصح للخير والحق سيلقى في هذا اليوم جزاء وفاقاً لاجترائه ؛ فلا ينال شيئاً ، ولا يجب أن يعترض على ذلك بأن المكافأة التي تحيء بعد ملايين السنين مكافأة قليلة القيمة ، فإنه سواء رقاد ساعة ورقاد ملايين السنين. وإذا منحت لنا هذه المكافأة التي أصورها لنفسي فستبدوا لنا كأنها جاءت عقب ساعة الموت. وأن أنسب كلمة تكتب على قبر عاشق المثل الأعلى أو على قبر المسيحي هي كلمة (ينتظر بعثاً مباركاً).

والدنيا بدون الله شيء شديد الفظاعة والنكر. وهي كذلك تتراءى لنا في هذه الأيام. ولكنها لا تدوم على هذه الحال. وبعد فترات القساوة والأنانية التي تعرض للموجود السائر في طريق الرقي ربما يستحق حلم ديانة الوجدانية فيظهر شعور رسام ينصف الضعفاء وينصر الصالحين. وإن الإلهي يقول (هذا واجب الوجود ولاذ وجد) أما نحن فنقول (أنه إذن سيوجد) ولهذا التعليل نصيبه من الحق ، لأننا قد رأينا أن أحلام الشعور الأخلاقي يمكن أن تتحقق يوماً ما. ويمكننا إذن أن نتصور شعوراً عاماً قد استغرق الجميع حتى السابقين ، وسينظمهم بمقدار ما أرادوا للخير والمطلق من خدمات ، ولكل حجر قيمته في أهram الخير الذي رفعت جهود الكائنات المتواترة ، ولا يزال المصري في عهد الملك شفرم الذي تحدثنا عنه منذ قليل موجوداً في الحجر الذي وضعه ، وكذلك سيكون شأن الرجل الذي اشترك مع غيره في عمل الأبدية ، ونحن نحيا بقدر الجزء الذي قمنا به في ابتناء المثل الأعلى ، وعمل الإنسانية هو الخير ، والذين عملوا على انتصار الخير سيضيئون مثل النجوم. وحتى إذا كانت الأرض في أحد الأيام لا تصلح إلا لتكون لبنا لبناء عمارة في المستقبل فإننا سنكون ما تكون القشرة الجيولوجية في كتلة الحجر المعدة لابتناء معبد ، وهذا الثلاثي الفصوص الحفير

الذي نرى آثاره مسطورة في سمك حيطاننا يحيا هناك بمقدار ضئيل. إذ يكون جزءاً من مسكننا.

ايدوكس

الخلود الذي تتصوره خلود صوري لا يتجاوز أبدية العمل ولا يدل على خلود الشخص ، وإن تأثير يسوع اليوم لأعظم بكثير من تأثيره عندما كان جليلاً غامض الشأن ، ولكنه مع ذلك ليس من الأحياء.

تيوكتست

إنه لا يزال حياً ، وشخصيته لا تزال باقية ، بل هي أعظم مما كانت وأن الإنسان ليحيا حيث يعمل ، ومثل هذه الحياة أنفس من حياة الجسد لأننا نضحى بالثانية للأولى ، ولا يعزب عن فكرك أنني لا أتحدث هنا عن الحياة في احترام الغير وتقديرهم أو في الشهرة والبقاء في الذاكرة ، فإن مثل هذه الحياة ليست في الحقيقة كافية ، بل هي عرضة لألوان من الغبن ، وخير الناس هم من تجنبوها ، وتيمور لنك أبعد شهرة من كثير من الصالحين الجاهولين ، ولم ينل مريس اورلياس قسطه الذي يستحقه من الشهرة إلا لأنه كان امبراطوراً وكتب تأملاته ، والتأثير الصادق هو التأثير الصامت المستخفي ، وليس معنى ذلك أن حكم التاريخ باطل في باطل وإنما هو مخطئ الخطأ كله في النسبة وربما كان بين الجاهولين من هو أعظم من الإسكندر ، وربما كان قلب المرأة التي لم تقل طوال حياتها كلمة قد أحس أحسن من شاعر تغني أرق الأشعار وأعذبها. وإنما أتحدث هنا عن الحياة من ناحية التأثير. أو كما يقول المتصوفون عن الحياة في الله وأن الإنسان ليخلد ببقائه في ذاكرة الله والمكانة التي يشغلها الرجل الفاضل في الإحساس المطلق وذكره التي يحتفظ بها هي الحياة الصادقة ، ومثل هذه الحياة خالدة باقية ، ولا مزية في أنه من التشبيه أن تنسب إلى الله صفات شعور مشابهة لشعورنا ؛ ولكن استعمال ألفاظ المشبهة في الفقه أمر لا محيص عنه ، وليس فيه من الضرر أكثر مما في استعمال أي مجاز أو استعارة ، وسيمتنع علينا التعبير باللغة إذا غالينا في التدقيق.

ايدوكس

هذا مفهوم ، ولكنك لم تفسر لنا كيف يمكن أن تتحدث عن الوجود الحقيقي بدون شعور مدرك

تيوكتست

ربما يكون الشعور المدرك صورة ثانوية للوجود. ولسنا نفقه معنى لهذا التعبير عندما نطلقه على (الكل) و(الكون) و(الله). والشعور المدرك يستلزم وجود دحد. ومعارضة بين الأنا واللا أنا. وهذا ينافي اللانهائي وإن الأبدى هو الفكرة. والمادة شيء نسبي من كل الوجوه. وليست في الواقع هي الشيء الكائن. وإنما هي اللون الذي يستخدم في التصوير والرخام الذي يستعمل في النحت والصوف المستعمل في التوشية والتطريز. ولا يمكن إنكار القدرة على إيجاد ما كان من جديد. ورد كل ماتم وقوعه. ولا أترث في أن أقول بأن كل تأكيد في هذه المسائل هو ضرب من اليقين ، واليقين يتجاوز حدود التجربة والمشاهدة ولست أقول أنه يناقضها ، ولكن بعد كل ذلك هل أملنا متفجع وهل رغبتنا مغرضة ! لا وحاشى لله أن تكون كذلك ، ونحن لا نطلب مثوبة وإنما نريد أن نكون وأن يتسع مجال معرفتنا وأن نهتدي إلى سر الدنيا الذي بحثنا عنه بشغف ومستقبل الإنسانية التي أولعنا بها ، وأمل ألا يكون في هذا بأس ولا حرج ، والذين يرون الوجود واجباً لا لذة لهم الحق في ذلك ، وأنا لا أطالب بحقي في الخلود الشخصي وإنما أريده شيتين أولاً إلا تذهب التضحيات التي قدمتها للصالح والحق سدي ؛ ولست أريد أن أتقاضى لقاءها ثمنًا ، وإنما أريد أن تكون قد عادت بالفائدة وأجدت بعض الجدوى ؛ وثانيًا يسرني السرور كله أن يعرف أحد الناس القليل الذي قمت به ، وأريد تقدير الله ولا أتطلع إلى أكثر من ذلك. فهل في هذا غلو وتطوح ؟ وهل تعذل الجندي الجائد بروحه لاهتمامه بنهاية المعركة ولحرصه على أن يعرف رضاء قائده عنه ؟

إن الإحساس يبطل بموت العضو الذي يتعلق به. ويختفي التأثير بذهاب المؤثر وإذا تحلل الذهن فلا شعور بالمعنى المألوف للكلمة. ولكن حياة الإنسان في المجموع العام

والمكان الذي يشغله فيه ونصيبه من هذا الشعور كل ذلك لا صلة له بالعضوي لأنها خالدة باقية. وللشعور علاقة بالمكان لا على أنه مقيم في نقطة خاصة ، ولكن على أنه شاعر في مكان محدود. أما الفكرة فليست لها مثل هذه العلاقة. وهي مجردة من المادة تجريدًا محضًا ولا سلطان عليها للزمن ولا للموت. والمثل الأعلى هو الخالد ولا شيء سواه وكل شيء زائل ما خلاه وما خلا ما يعمل من أجله وما يخدمه. فلنتأس نحن الضحايا المعذبة فإنه سيخلق من دموعنا إله.

اتيفرون

للعلماء الإثباتيين اعتراض هام على ما جلوته. وأيضًا على كثير من الآراء التي بسطها فيلايت وتيوفراست. لقد عززت للكون وللمثل الأعلى بمشئيات وأعمال لم يعهد لها الناس حتى الآن إلا للكائنات العضوية. ولا شيء يبيح لنا حق اعتبار الكون كائنًا عضويًا ولو على شكل أحط أنواع الحيوانات النباتية. وإلا فأين أعصابه ؟ وأين مخه ؟ ولم يثبت قط وجود شعور أو إحساس في أحط الدرجات في كائن مجرد من المخ والأعصاب أو بصريح العبارة من التركيب المادي.

تيوكتست

اعتراضك مقبول حاسم ضد وجود الأرواح المنفصلة والملائكة ولكنه ليس حاسمًا من ناحية افتراض قوة جاهدة في صميم الكون. النبض الغريزي ضرب من خصائصها وبمبدأ أول مثل الحركة نفسها. ولم نستطع قط أن نضرب للكون مثل الحيوان إلا من طريق المجاز ، لأن الحيوان يدل على نوع وكثرة من الأفراد وإلا لكان يوجد إذن أكوان عدة ! وتدل كل حقائق الطبيعة العامة على أن هذه الكتلة اللانهائية تعمل على إيجاد نوع من الرشع العام الذي نسميه شعورًا لعدم وجود اسم أنسب وبسبب نزعة إلى مذهب المشبهة لا مناص منها. وكل ما في الطبيعة في حركة. ولا مجال للشك في ذلك. ولكن الحركة لها سبب وغاية فسببها المثل الأعلى وغايتها الوعي.

فيلاليت

في أكثر الأحيان أقول لنفسي أنه لو كانت غاية الكون سيرة لفنانة معجلة مندفعة كالتى نفترضها لاتجاه العلم لما كان ثمة من أزهار ولا أطيّار بهيجة ولا أفراح ولا ربيع. لأن هذا كله يدل على إله أقل شغلاً وهما مما نعتقد. إله يتسلى ويلهو ويستمتع بحالة كاملة كل الكمال.

ايدوكس

سأذهب أبعد مما ذهبت. وسأزعم أن وسط الكون شيئاً مستقراً. وهو مكان للأفكار كما يقول ملبرانش. ونحن لا نفتأ عود إلى صيغ هذا المفكر الكبير كلما تناولنا العلاقة بين الله والكون وبين الفرد واللامحدود. صدقوني أن الله ضرورة مطلقة. إن الله سيكون والله كائن. فمن ناحية الواقع هو سيكون. ومن ناحية المثل الأعلى هو كائن. (الله في الكينونة والضرورة معاً) ولا يمكن أن ينمو ويترقى إلا ما هو كائن. وكيف نتصور ترقياً بادئاً من لا شيء؟ ولو لم يجعل الأب السرمدى الهاوية خصبة مثمرة لظلت راكدة طوال الأبد. فالتطور يصحب الوجود والكون. والحركة تلزم الحرك كالثقب الثابت وسط العجلة. وقد أجاد تيوكست في إثباته أن الغاية الوحداية هي وحدها التي تساعد على تحقيق أبعد أفكارنا أعراقاً في مسألة ضرورة عدالة أسمى للمرء وللإنسانية. ولنصف إلى ذلك أنه إذا كانت الحركة قد وجدت من الأزل فإننا لا نستطيع أن نتصور كيف أن الدنيا لم تصل إلى الراحة والرتابة والكمال. وليس شرح كيف أن التوازن لم يحفظ حتى الآن أيسر من إظهار كيف اختل واضطرب. وإذا كان الهداف الذي تحدثنا عنه بالأمر قد استمر يوالي طلقاته منذ الأزل لكان الآن قد أصاب الهدف.

اتيفرون

نحن مشرفون الآن على المتناقضات الكانتية. تلك الهاويات الفاعرة في النفس الإنسانية التي نحار فيها. وما دمنّا قد اقتربنا منها فلنقف فإن العقل واللغة يتعلقان بالحدود ونقلهما إلى غير الحدود يشبه كل الشبه محاولة قياس حرارة الشمس أو

جوف الأرض بمقياس الحرارة العادي. والنمو الخاص الذي نشهده ليس سوى نمو ذرة ؛ ولكننا نريده أن يكون تاريخ المطلق ونحاول أن نجعل الأبدية مسرحه ومجاليه ونرتكب نفس الخطأ الذي يعرض لنا عندما نحاول حل رموز أوراق بردي (هركالينام) ، حيث تقابل الأوراق المختلفة يجعلنا نلحق حروفاً منها بإحدى الصفحات في حين أنها متصلة بصفحة أخرى.

ايدوكس

لنشكر تيوكتست لأنه شرح لنا أحلامه كلها ، (وهكذا يعبر القساوسة عن أنفسهم ولو أن هناك اختلافاً في اللهجة) ولا يتجنب الاشتغال بهذه المسائل سوى أهل العقول السطحية وهم يجسسون أنفسهم في مغارة وينكرون وجود السماء ؛ ونفس هؤلاء الناس كانوا يقولون لكولومبس وهو يرمي ببصره إلى أفق البحر صوب الغرب (أيها الأحقق المسكين إنك تبصر جيداً أنه لا شيء وراء ذلك).

فيلايت

بعد سنوات قلائل إذا امتد بنا العمر وبقيت الدنيا يمكن أن تعاود البحث في هذه المسائل ونرى كيف تعدلت طريقة نظرنا إلى الكون ، ومما يطيل الأسف أننا لا نستطيع - كما في الأسطورة التي رواها توماس دي كانتمبريه - أن نعين مكاناً للقاء الذين سيدركهم الموت منا ليقدموا لنا بياناً عن حالة الأشياء الحقيقية في الحياة الأخرى !

ايدوكس

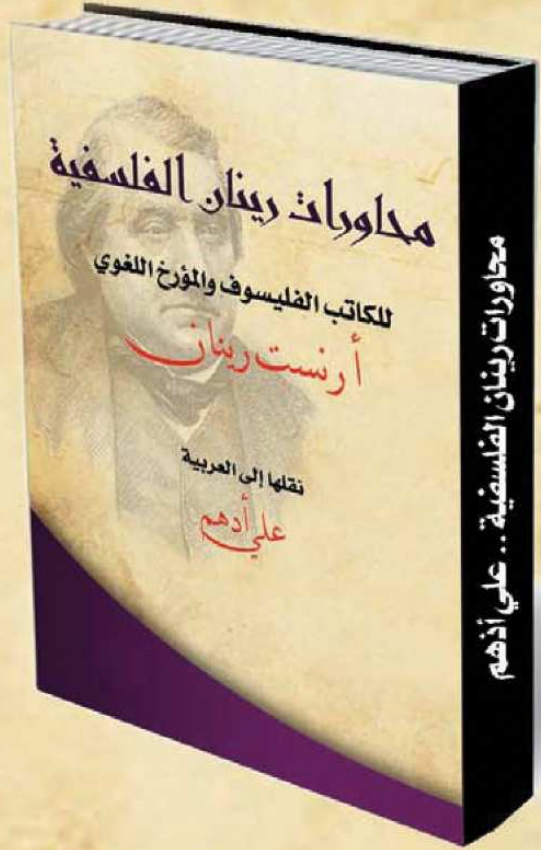
أعتقد أن شهادة الميت في مثل هذه المسألة قليلة القيمة ، كما ورد في المثل (أنهم لا يقتنعون ولو قام أحد الموتى) أما من ناحية الفضيلة فإن كل إنسان سيجد التأكيد الكافي بمناجاته لقلبه.

فهرس الكتاب

- ٥..... تصدير -
- ٩..... مقدمة المعرب -
- ٣٥..... الإهداء -
- ٣٧..... مقدمة المؤلف -
- ٤٥ المحاوره الأولى -
- ٧١ المحاوره الثانية -
- ٨٩ المحاوره الثالثة -

هذا الكتاب :

لأرنست رينان مكانة ملحوظة الجلال في تلك المنظومة الفريدة من مبرزي الكتاب وأعلام الفلاسفة ، وأعيان المؤرخين ونواب المستشرقين ، التي أزدان بها الأدب الفرنسي في القرن التاسع عشر ، وبعد صيته وعظ تأثيره واتسع ثراؤه. ورينان من أح رجالات الأدب الفرنسي بالعناية وأجدره بالدرس لأنه نسيج وحده في تعدد مناح الفكر ، وتنوع المواهب ، فهو فليسوف يعالج الموضوعات الكبرى ، وكاتب خلاب الأسلوب ، وناقد نافذ البصيرة ومؤرخ موقف الرويئة ، وقد جمع بين عم الإحساس الشعري واستفاضة المعرفة ، وب سعة العقل وحرية الفكر وسراوة الأطلا والقداسة.



وكالة الصحافة العربية

«ناشرون»

